العقلانية والتسامح

نقـد جـذور التطـرف الديني

ⓒ اطياف للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصفار ، حسن موسى
العقلانية والتسامح. / حسن موسى الصفار .- القطيف ، ١٤٣٩هـ
٢٤٦ ص ؛ ..سم

ردمك: ٢-٨٩-٨٢٠٨-٦٠٣-٩٧٨

١- التسامح أ.العنوان
ديوي ٣٠٩,١٦٢ ١٤٣٩/٨٧٧٤

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٨٧٧٤
ردمك: ٢-٨٩-٨٢٠٨-٦٠٣-٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

حسن موسى الصفار

العقلانية والتسامح

نقــد جــذور التطــرف الديني

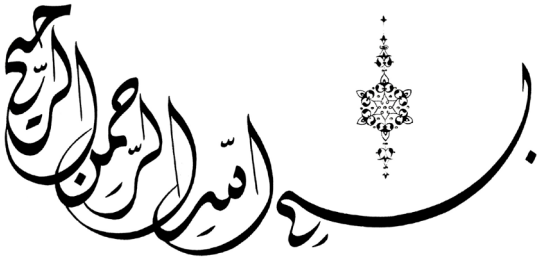
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التطـرف كأي ظاهـر ة اجتماعيـة لا تحدث من فـراغ، ولا تحصل عن طريق الصدفة أو بشـكل مفاجئ، بل لكل ظاهرة اجتماعية أسـباب وعوامـل تنبثـق منهـا، وهـو مـا يدفـع لدراسـة الظواهـر الاجتماعية، والاجتهاد في تفسيرها، واكتشاف مبرراتها.

وقـد تتعدد الأسـباب والعوامل التـي تصنع الظاهـرة الاجتماعية، وتتفاوت نسـب تأثيرها، فـلا ينفرد بإنتاجها عامل واحد، ولا يتسـاوى حجم تأثير العوامل المختلفة فيها.

لكن ما لا يُشك فيه أن للثقافة والفكر دورًا أساسًا في صنع ظاهرة التطرف، مع عدم التنكر لدور العوامل الأخرى السياسـية والاقتصادية والاجتماعيـة. وخاصة حينمـا ينطلق التطرف من خلفيـة دينية، فذلك يعنـي أن تفسـيرًا ما للدين دفع بمعتنقيه إلـى منزلق التطرف، وصنع في نفوسـهم القابلية لممارسـته، كفعل مشـروع ومطلوب دينياً يتقربون به

إلى الله تعالى.

إن بعض الأفكار والآراء المنسوبة إلى الدين تدفع إلى التطرف بشكل واضح ومباشر، وبعضها تؤسِّس لحالة التطرف في نفس المؤمن بها، وتهيئه لممارسة السلوك المتطرف.

ولأن التطرف هو المشكلة الأخطر والأبرز التي تعاني منها ساحتنا الدينية في الوقت الحاضر، كان لا بُدّ من تسليط الأضواء عليها كظاهرة اجتماعية عبر دراسة جذورها وخلفياتها الفكرية، ومعرفة مدى موافقتها أو تنافيها مع القيم والمبادئ الأساس في الدين.

على أن هناك مرجعية لا يمكن تجاوزها في فهم الدين وتشخيص تطبيقاته في شؤون الحياة، هي مرجعية العقل، فالدين خطاب للإنسان بما هو كائن مفكر عاقل، و«الشرع سيد العقلاء» كما يقول علماء الأصول.

وبين يدي القارئ الكريم وريقات تهتم بمعالجة ظاهرة التطرف الديني ونقد جذورها الفكرية والنفسية، كتبتها لتكون مادة لعدد من المحاضرات ألقيتها في موسم المحرم عام ١٤٣٩هـ، ثم رأيت نشرها بعد شيء من التعديل والتنقيح، أرجو أن تكون مساهمة مفيدة في بث الوعي وتحصين المجتمع من تأثيرات أفكار التطرف والتشدد، وللتبشير بنهج العقلانية والتسامح.

ولا يفوتني أن أشكر الجهد الكبير الذي بذله الأستاذ عبدالباري

الدخيـل في تهيئة المصـادر وطباعة أوراق التحضير، كما أشـكر جهد الأستاذ مهدي صليل في متابعة تحرير هذه الموضوعات وتصحيحها، والأستاذ علي الأصيل لدوره في التدقيق اللغوي.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

حسن الصفار

٢٥ رجب ١٤٣٩

١١ أبريل ٢٠١٨م

الخطاب الديني بين المسؤولية والشعبوية

ذكر الشـيخ الصدوق في أماليه بسنده عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: «مَن طَلَبَ رِضَا اللّهِ بِسَخَطِ النّاسِ كَفاهُ اللّهُ أُمورَ النّاسِ، ومَن طَلَبَ رِضَا النّاسِ بِسَخَطِ اللّهِ وَكَلَهُ اللّهُ إلَى النّاسِ»[1].

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق). الأمالي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (قم: مؤسسة البعثة). ص٢٦٨، حديث ٢٩٣ .

تأثير الخطاب الديني في المجتمع

للخطـاب الموجه للجمهـور تأثير على تشـكيل ثقافـة المجتمع، وتوجيه مواقف وسلوكيات أبنائه.

كان هذا من قديم الزمان، حيث كانت خطب الزعماء والقيادات، وقصائد الشعراء والأدباء، تلهب المشاعر، وتحرك الأحاسيس، وتصنع الرأي العام في مجتمعاتها، وتقودهم نحو التوجهات المطلوبة.

وفي المجتمعات الدينية يكون للخطاب الديني تأثير أكبر من سائر الخطابات؛ لأنه في نظر المتدينين يعبّر عن مقاصد إلهية، وأوامر دينية، والاستجابة له تحقق رضا الله وتنجي من سخطه.

من هنا كان لروايات المحدثين، وفتاوى الفقهاء، وخطب الواعظين والدعاة، نفوذ في نفوس الناس، وتأثير على أفكارهم وسلوكهم.

وفـي عصرنـا الحاضر فـإنّ تطـور وسـائل الإعـلام، وتكنولوجيا التواصل الاجتماعي، أعطى للخطاب الديني أفقًا أوسـع في الانتشـار

والتأثير، حيث الفضائيات، والبث المباشر، والشبكة العنكبوتية، والخدمات المتطورة للهواتف النقالة.

وتوفر المواسم الدينية فرصًا مميزة للخطاب الديني، حيث يُقبل الناس على الإصغاء له، والتفاعل معه، بحكم طبيعة الأجواء الجمعية الشعائرية.

ولأننا نستقبل هذا الموسم العظيم (عاشوراء الحسين عليه السلام) الذي يوفر لمجتمعاتنا أجواء مميّزة قلّ نظيرها في سائر المجتمعات، ويكون للمنبر فيها دور أساس، فمن الضرورة بمكان الاهتمام بمستوى الخطاب الديني وتوجهاته.

إنّ تأثير الخطاب الديني هو مصدر أهميته، وفي الوقت ذاته مكمن خطورته، فإذا لم يكن في الاتجاه الصحيح، فسيصيب الدين والأمة بأضرار جسيمة، وإذا لم يقم بوظيفته المطلوبة، فسيضيِّع على المجتمع أعظم الفرص والمكاسب.

ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا علي، هلاك أمتي على يدي كلّ منافق عليم اللسان»[1].

و(عليم اللسان) أي المتحدث الذي له تأثير في مستمعيه. فإذا لم يكن مخلصًا صادقًا، فإنّ هلاك الأمة يكون على يديه؛ لأنّ توجيهه قد

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(الشيخ الصدوق). الخصال، ١٤٠٣، (قم: مركز المنشورات الإسلامية)، ص٦٩، حديث١٠٣.

يأخذ الناس إلى مسار مهلك لهم.

وعنه ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ!

قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟

قَالَ: خُطَبَاءُ أُمَّتِك، الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُون»[1].

إنّ للخطيب موقعًا خطيرًا، وهو محاسب على تعامله مع هذا الموقع، وعليه أن يدرك ذلك، ويكون حريصًا على مراعاة الضوابط الشرعية والمصلحة العامة.

(١) علاء الدين علي المتقى بن حسام الدين الهندي. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج١١، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٣٩٨، حديث ٣١٨٥٦.

ضوابط المسؤولية في الخطاب

يمكـن الحديث عن أهم ضوابط المسـؤولية في الخطاب الديني، وهما ضابطان:

الأول: الانطـلاق مـن قيـم ومفاهيـم الديـن وتعاليمه، فـلا يصح الافتراء على الدين ولا تجييره لخدمة المصالح والأهواء.

الثاني: رعايـة المصلحة العامة للدين والمجتمـع، وأخذ الظروف والأوضـاع الحاضـرة بعيـن الاعتبـار، واختيار الأسـلوب المناسب للطرح، حتى لا يكون منفّرًا للناس من الدين.

إنّ الديـن منظومة من العقائد والمفاهيم والأحكام والآداب، وفي التـراث الدينـي قضايا ومواضيع كثيرة، لكن الخطـاب يجب أن يراعي حاجات المجتمع المخاطب، وظروفه ومصالحه، فتكون هناك أولوية لاختيـار المواضيع التـي تعالج القضايـا المهمة الحاضـرة، ولا يربك المجتمـع بطـرح القضايـا الجانبية الفرعيـة، أو يسـتغرق الخطاب في

سـرديات تاريخية، قد تشبع فضول المسـتمع لكنها لا تقدم له ما ينفعه في حياته.

ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: دَخَلَ رَسولُ اللّه صلى الله عليه وآله المَسجِدَ فإذا جَماعَةٌ قَد أطافوا بِرَجُلٍ، فقالَ: ما هذا؟ فقيلَ: عَلاّمَةٌ، قـالَ: وما العَلاّمَةُ؟ قالوا: أعلَمُ النّاسِ بِأنسـابِ العَرَبِ ووَقائِعِها، وأيّامِ الجاهِلِيَّةِ، وبِالأشعارِ والعَرَبِيَّةِ، فقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: ذاكَ عِلمٌ لا يَضُرُّ مَن جَهِلَهُ، ولا يَنفَعُ مَن عَلِمَهُ[1].

يقـول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَـدِيداً﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٧٠]، أي قولًا رصينًا محكمًا، لا تكون فيه ثغرات تخلّ بمصالح الدين والمجتمع.

ويقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل، آية: ١٢٥]، والحكمة تعني وضع الشيء المناسب في المكان المناسب.

وجـاء عن علي عليه السلام في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: «طَبِيـبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ»[2].

(مَرَاهِمَهُ) تعبير عن المداراة واللين.

(مَوَاسِـمَهُ) ما يسـتخدم للكي، في الطب القديم، كناية عن الشدة،

(١) محمـد بـن يعقـوب الكليني. الكافـي، ج١، طبعـة ١٩٨٥م، (بيـروت: دار الأضواء)، ص٣٢، حديث ١.

(٢) الشريف الرضي. نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الطبعة الأولى ١٩٦٧، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، خطبة ١٠٨.

وكلٌّ في موضعه.

وورد عن الإمام الصادق ﷺ: «لا تَكَلَّم بِما لا يَعنيكَ، ودَع كَثيراً مِنَ الكَلامِ في ما يَعنيكَ حَتّى تَجِدَ لَهُ مَوضِعًا؛ فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ تَكَلَّمَ بِالحَقِّ بِما يَعنيهِ فَي غَيرِ مَوضِعِهِ فَتَعِبَ»(١).

فمقياس الحقانية ليس هو المقياس الوحيد لاختيار الكلام.

ينبغي التفكير والتساؤل: هل يناسب الظروف الراهنة أم لا؟!

وفي الحديث عنه ﷺ: «إنَّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلّم الناس على قدر عقولهم»(٢).

قال ابن القيّم الجوزيّة: «كان رسول الله ﷺ يخطب في كلّ وقت بما يقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم»(٣).

وكما قيل: ليس كلّ ما يعرف يقال، وليس كلّ ما يقال حضر أهله، وليس كلّ ما حضر أهله، حان وقته، وليس كلّ ما حان وقته صح قوله.

إنّ المسألة لا تكمن في أنّ القول صحيح أم لا، فقد يكون صحيحًا، لكن توقيت الطرح قد يكون غير مناسب، فيصبح الخطاب ضارًّا بدل أن يكون نافعًا.

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج ٧٨، الطبعة الثالثة ١٩٨٣، (بيروت: دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي)، ص ٢٦٥، حديث ١٧٦.

(٢) الكافي. ج١، ص٢٣.

(٣) ابن قيم الجوزية. زاد المعاد، ج١، الطبعة الرابعة والعشرون ١٩٩٤م، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية)، ص ٤٨.

الاستجابة للميول الشعبية

ليس خطأ أن يفكر الخطيب في استقطاب الجمهور ونيل رضاه، ليحضروا خطابه، وليتفاعلوا مع أطروحاته، بل هو أمر مطلوب، وذلك يتم عبر معالجة همومهم وقضاياهم، واختيار اللغة الجاذبة، والأسلوب المؤثر، لكن يفترض أن تكون للخطيب رسالة يريد إيصالها للجمهور، وأن تكون لديه رؤية من وحي التزامه بضوابط المسؤولية، لا أن يكون الاستقطاب هدفًا بحدّ ذاته، لتحقيق البروز، أو كسب الجاه والنفوذ، وتحصيل المصالح، وليس الهدف إمتاع الجمهور، بل توعيته وتوجيهه.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «الشيعة ثلاث: محبّ وادّ، فهو منّا، ومتزيّن بنا، ونحن زين لمن تزيّن بنا، ومستأكل بنا الناس، ومن استأكل بنا افتقر»[1].

حيث يحذر الحديث من الارتزاق بذكر أهل البيت عليهم السلام، فهو

(١) بحار الأنوار. ج٦٥، ص١٥٣، حديث٨.

رسالة وليس مصدر رزق، أو دكان تجارة، ومن تعامل مع ذكر أهل البيت بهذه الطريقة، فإنه يصاب بالفقر، وقد لا يكون الفقر المادي، بل الفقر المعنوي، أو الفقر الأخروي، لذلك لا يصح أن يكون الهم الأول للخطيب هو الحصول على المال أو النفوذ الاجتماعي.

ماذا تعني الشعبوية ؟

يحدد قاموس (بوتي روبير) طبعة عام ٢٠١٣م بأن الشعبوية هي: (خطاب سياسي موجه إلى الطبقات الشعبية قائم على انتقاد النظام ومسؤوليه والنخب)[١].

ويقول الباحث الأمريكي (مارك فلورباي) من جامعة برينستون: إنّ الشعبوية هي (البحث من قبل سياسيين يحظون بكاريزما عن دعم شعبي مباشر في خطاب عام يتحدى المؤسسات التقليدية والديموقراطية)[٢].

لقد بات مصطلح الشعبوية يتكرر مع كلّ عملية اقتراع، بدءًا من (بريكست) مرورًا بحملة ترمب.

والشعبوية في فرنسا من يتلاعب بأفكار الناس لغايات سياسية حسب مدير مجلة «كريتيك» فيليب روجيه[٣].

وأخذ مصطلح الشعبوية طريقه إلى التداول في السنوات الأخيرة

(١) جريدة النهار اللبنانية، ٢ ديسمبر ٢٠١٦م. https://www.annahar.com/article/504973
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

من القرن التاسع عشر، إثر الاحتجاجات التي قام بها الفلاحون في روسيا لأجل تحررهم.

ويتم توصيف الخطابات بالشعبوية للدلالة على أنها تثير المشاعر العامة للناس؛ لكونها تتوجه إليهم بطريقة غير منتظمة، تتخطى العقلانية والوقائع، وتعمد إلى تضخيم بعض الأمور، للوصول إلى نتائج تناسب الرغبات أو الأهداف المطروحة.

وهناك مصطلح في مصر: «الجمهور عايز كده». للدفاع عن الانحطاط والهبوط الذي أصاب الإنتاج الفني في مصر من غناء ومسرح وأفلام، ثم سرت للكتابات والخطابات.

وبعض الإذاعات لديها برنامج (ما يطلبه المستمعون).

لكن الخطاب الديني لا يصح أن يكون شعبويًا، بمعنى استهدافه دغدغة المشاعر والعواطف على حساب الحقائق والمصالح الواقعية، ولا أن ينقاد لرغبات الجمهور على حساب الوظيفة الشرعية.

ذكر الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة أنّ رسول الله ﷺ قال: «من أرضى الله بسخط الناس، كفاه الله الناس، ومن أسخط الله برضى الناس، وكله الله إلى الناس»[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام فيما روي عنه: «ما أعظم وزر من طلب

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٥، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، (بيروت: المكتب الإسلامي)، ص٣٩٢، حديث ٢٣١١.

رضى المخلوقين بسخط الخالق»[١].

كما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «من طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»[٢].

ومثله ما أخرجه الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «منِ التمسَ رضا اللَّهِ بسَخطِ النَّاسِ كفاهُ اللَّهُ مؤنةَ النَّاسِ، ومنِ التمسَ رضا النَّاسِ بسخطِ اللَّهِ وَكلَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ»[٣].

ويمكن رصد ثلاثة أساليب للخطاب الديني الشعبوي:

الأول: أسلوب التهييج السياسي:

فللشعوب في كلّ البلدان قضايا ومطالب واهتمامات، وعادة ما يتفاعل الناس مع من يرفع صوت المعارضة والاحتجاج، وهنا لا بُدّ وأن تؤخذ الظروف والأوضاع في كلّ بلد ومجتمع بعين الاعتبار، فما يكون مفيدًا في بلد قد يكون مضرًّا في بلد آخر، وما يكون مناسبًا لظرف وزمن، قد لا يكون مناسبًا في ظرف وزمن مختلف.

---

(١) الميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل، ج١٢، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٢١٠.

(٢) الشيخ الصدوق. الأمالي، ص٢٦٨، حديث ٢٩٣.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. سنن الترمذي، ج٣، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٣٣٩، حديث ٢٤١٤.

الثاني: أسلوب التعبئة المذهبية

هنـاك أرضية خصبة في مجتمعاتنـا للتفاعل مع الخطاب المذهبي والطائفي، بسـبب وجود تـراث تاريخي وثقافي ضخـم عند كلّ طائفة في السجال المذهبي، وبسبب وجود خلل في العلاقات بين الطوائف، حيـث تسـتعلي طائفـة علـى أخـرى، وتعانـي طوائـف مـن التهميش والإقصـاء، وحيـث تسـتعر نيـران الفتـن والصراعـات الطائفيـة، فمن الطبيعـي أن يتفاعـل الجمهـور من مختلـف الطوائف مـع الطروحات المذهبية، ويصبح سوقها رائجًا، وأبرز شاهد على ذلك هذه الفضائيات الطائفيـة، ومـن يركب هذه الموجـة يصبح نـجمًا وبطلًا، كمـا رأينا أنّ أفرادًا نكرات أصبحوا أرقامًا يحسب لهم حساب!!

لكـن الخطيـب الواعـي هو مـن يجعـل المصلحـة العامـة للدين والأمـة والوطن نصب عينيـه، فيتقي الله فيما يطرح ويقـول، فكثيرًا ما تتأثر العلاقة بين أبنـاء الوطن الواحد بخطب التعبئة الطائفية، ويحدث الشقاق والنزاع بين الزملاء في أماكن عملهم.

الثالث: أسلوب الإثارة العاطفية:

لا شـك أنّ للعاطفـة دورًا ينبغي أن يسـتثمر في الخطـاب الديني، بإثارة الخشـية من الله والشوق إلى رضاه، والحبّ لأولياء الله، والتأثر لمصائبهم ومعاناتهم.

لكن لا ينبغي الاسـتغراق والمبالغة فـي الجانب العاطفي، بحيث

يتجاوز الحدود المشروعة، بسرد قصص مختلقة، أو نسبة كذب لمقامات الأنبياء والأئمة والأولياء.

قد يرى البعض أن غرض الإبكاء على الحسين مبرر لذكر ما لا أصل له، أو التصوير بلسان الحال لما لا يليق بمقام الأئمة والأولياء وهذا خطأ لا ينبغي الوقوع فيه.

ذكر السيد حسن القزويني من علماء الشيعة البارزين في الولايات المتحدة الأمريكية في كتاب له عن تجربته التبليغية هناك تحت عنوان: (الشمس تشرق من المغرب) أنّ خطيبًا في مسجد للجالية الباكستانية في كاليفورنيا كان مولعًا بذكر المعاجز والكرامات ليس للأئمة الطاهرين فحسب وإنما لفرس الإمام الحسين عليه السلام، ففي أكثر من ليلة تحدث وبشكل مسهب عن وجوه الإعجاز والكرامات لهذا الفرس[1].

وقد صنّف العلامة الشيخ حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل (توفي ١٣٣٠هـ) كتابه (اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر)، لمعالجة هذه المشكلة التي يعاني منها معظم الخطاب الديني في الساحة الشيعية.

ومما جاء فيه:

(في ذكر بعض الشبهات التي حملت هذه الجماعة، بل بعض أرباب

(١) السيد حسن القزويني. الشمس تشرق من المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، (بيروت: مؤسسة البلاغ)، ص١٠٩.

التأليف، على نقل الأخبار والحكايات التي لا أساس لها، والروايات التي لا يحتمل صدقها، أو التي يكون احتمال صدقها في غاية الضعف، وعلى افتراء الكذب، وجعل الأخبار ووضعها، واختلاق الحكايات المتضمنة للمصائب التي لا واقع لها، من أجل إبكاء المؤمنين وإضفاء الرونق على مجالس العزاء).

ويتابع: (ما نقل عن بعض مختلقي الكذب من الأخبار التي تمدح الإبكاء، وترغّب فيه، وما سُطّر في هذا المجال، مما يوحي بأن كلّ ما يحمل على البكاء، وما هو وسيلة للتفجّع وإسالة الدموع ممدوح ومستحسن، ولو كان كذبًا وافتراء).

ويضيف: (ولا يخفى على كلّ ذي شعور أنّ هذا النمط من الكلام خلاف ضروريات الدين والمذهب، وخروج عن الملة والإسلام. وجواب أصل هذه الشبهة مشروح في الفقه في كتاب المكاسب، ومجمله الذي يمكن إيراده هنا: أنّ المستحب مهما كان عظيمًا، لا يمكنه أن يعارض الحرام مهما كان حقيرًا، ولا يطاع الله من حيث يعصى، ولا يكون ما يوجب عقوبة الله وسخطه داعيًا للتقرب منه، وأن مورد كلّ المستحبات ما كان جائزًا في نفسه، مباحًا بذاته، أما إذا كان حرامًا، وتترتب عليه مفسدة عظيمة، تستوجب توجه النهي عنه، لا يبقى لذلك المستحب محلّ ولا مجال)[1].

(١) حسين النوري الطبرسي. اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، (بيروت: دار البلاغة)، ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

إنّ ذكر النصوص المعتبرة عن حادثة عاشوراء، وعن مصائب أهل البيت عليهم السلام، تكفي لإثارة المشاعر الولائية النبيلة دون الحاجة للتلفيق والاختلاق.

لقد أبكى مصرع الحسين جده رسول الله صلى الله عليه وآله قبل ولادة الحسين، وعند ولادته ونشأته.

أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، حديث رقم ٦٤٨، بسنده عن عبد الله بن نُجي، عن أبيه، عن علي عليه السلام قال: «دخلت على النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله أغضبك أحد، ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أنّ الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال: هل لك إلى أن أُشِمَّكَ من تربته؟ قال: قلت: نعم، فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا»[1].

(١) أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: عالم الكتب)، ص٢٦٤.

ظاهرة التطرّف الديني

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[سورة النساء، الآية: ١٧١].

التطرف كظاهرة اجتماعية

لا يكاد يخلو تاريخ مجتمع من المجتمعات البشرية من بروز حالة من التطرف في صفوف أبنائه في وقت ما، لكنها تتفاوت في حجمها ومساحتها وآثارها.

قد تعنون حالة التطرف بنزعة عنصرية، أو عصبية قومية، أو فكرة دينية، أو تمرّد طبقي، أو غرض سياسي، لكن الظاهرة تبقى موجودة، عاشتها مختلف المجتمعات البشرية بدرجات متفاوتة.

ونركز البحث هنا حول التطرف الديني، حيث ابتليت الأديان بالتصاق هذه الظاهرة بها، كما نقرأ في الآية الكريمة تنبيه القرآن لأهل الكتاب من اليهود والنصارى على إصابتهم بداء الغلوّ، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[سورة النساء، الآية: ١٧١].

ومثلها ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي

دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[سورة المائدة، الآية: ٧٧].

الغلوّ لغةً:

والغلوّ مرادف للتطرف، فكلاهما يعني تجاوز الحدّ والتشدد والمبالغة.

جاء في لسان العرب لابن منظور: (غَلا فِي الدِّينِ والأَمْر يَغْلُو غُلُوّاً: جاوَزَ حَدَّه)[1].

وقالوا في معنى التطرف لغة: الوقوف على الطرف بعيدًا عن الوسط، بحيث يكون أقرب إلى الهلكة والخطر وأبعد عن الحماية والأمان، فالتطرف والغلوّ كلمتان تشتركان في دلالتهما على معنى واحد.

التطرف في التاريخ الإسلامي

نقرأ في تاريخنا الإسلامي كيف أنّ هذه الظاهرة قد برزت مبكرًا، على شكل حالات فردية على عهد رسول الله ﷺ، حيث تشير بعض الأحاديث إلى أنّ أفرادًا كانوا يتّصفون بالتزمت والتطرف الفكري، وكانوا يزايدون على رسول الله ﷺ في بعض المواقف، وقد نبّأ ﷺ بأنهم نواة لاتجاه التطرف والتشدد.

(١) ابن منظور. لسان العرب المحيط، ج١٥، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الجيل، دار لسان العرب)، ص١٣٢.

فعن أبي سَـعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِـمُ قِسْـمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِـمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ»[١].

وعن جابر بن عبد الله: «أتى رَجُلٌ رَسـولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله بِالجِعرانَـةِ مُنصَرَفَهُ مِن حُنَينٍ وفي ثَوبِ بِلالٍ فِضَّةٌ، ورَسـولُ الله صلى اللـه عليه وآله يَقبِضُ مِنها، يُعطِي النّاسَ، فَقـالَ: يا مُحَمَّدُ! اِعدِل. قالَ: وَيلَـكَ! ومَـن يَعدِلُ إذا لَـم أكُن أعدِلُ؟ لَقَد خِبتَ وخَسِـرتَ إن لم أكُن أعدِلُ. فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ: دَعني يا رَسـولَ الله فَأَقتُلَ هذَا المُنافِقَ. فَقالَ: مَعاذَ اللّهِ أن يَتَحَدَّثَ النّاسُ أنّي أقتُلُ أصحابي، إنَّ هذا وأصحابَهُ يَقرَؤونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُم، يَمرُقونَ مِنهُ كَما يَمرُقُ السَّـهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[٢].

وفـي عهد أميـر المؤمنين علي عليه السلام أصبح التطرف تيـارًا يضم آلافًا

(١) محمد بن إسـماعيل البخاري. صحيح البخاري، كتـاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٣٩، حديث ٣٦١٠.

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (الرياض: دار المغني)، حديث ١٨٣٧.

مـن الأتبـاع عرفوا بالخوارج، وقـد كفّروا الإمام عليًّـا، وكفّروا كلّ من خالفهم الرأي، وتمردوا على السـلطة الشرعية، والمجتمع الإسلامي، وخاض معهم الإمام علي حربًا ضارية في معركة النهروان، هُزموا فيها شرَّ هزيمة.

وحينمـا قيـل لعليٍّ بعد النهـروان: هلك القـوم أجمعهم، قال ﷺ: «كَلَّا وَالله إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلابِ الرِّجالِ، وَقَراراتِ النِّساءِ، كُلَّما نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ»[1].

وقد استمرت هذه الظاهرة تبرز وتخبو في التاريخ الإسلامي، فقد توالت معاركهم فيما بعد مع السلطات والحكومات.

انبعاث الأصوليات الدينية

نلحـظ فـي عصرنـا الحاضـر اتسـاع ظاهـرة التطـرف الدينـي في المجتمعـات، ضمن ما يطلق عليه انبعاث الأصوليات الدينية، فبعد أن بـدا وكأنّ المجتمعات ابتعدت عن الدين، ولم يعد إنسـان العصر يهتم بالدين، حصلت عودة إلى الدين في مختلف المجتمعات.

إذ مع التطور الكبير الذي حققته الحضارة المادية، كان هناك رهان وتوقع بانتهاء عصر الدين، ذلك لأنّ هذه الحضارة جاءت على أنقاض الحالة الدينية في أوروبا، فقد تطور وعي الإنسـان ومعرفته، ولم تتطور المعرفة والفكر لدى المؤسسات الدينية، مما أفقد الإنسان ثقته فيها، بل

(١) نهج البلاغة. خطبة ٦٠.

رأى أنّ بعض الأفكار الدينية خرافية، فسادت في العالم ثقافة العزوف عن الدين، ورفعت بعض الشعارات منها موت الإله، ونهاية الدين، وحصل تطرف ضدّ الدين، وصلت ذيوله إلى مجتمعاتنا الإسلامية، وتبنّت بعض الحكومات والنخب السياسية هذا التوجه، كرضا شاه في إيران، وكمال أتاتورك في تركيا، والمتطرفين من الشيوعيين والبعثيين في البلاد العربية.

العودة إلى الدين وبذور التطرف

لكن المفاجأة حصلت بعد شعور الإنسان بأنّ ما تنعم فيه من مكتسبات مادية لم تشبع كلّ حاجاته، وبدأ يشعر بحالة الجفاف والتصحّر الروحي، وحدّية التوجهات المادية، وتداعياتها التي أثرت على الحالة الاجتماعية الإنسانية، مما أعاد الناس مرة أخرى إلى الدين، وكان ينتظر أن تكون هذه العودة سببًا لتحقيق التوازن بين الإنجازات العلمية والمادية، وبين الأبعاد الروحية والمعنوية للإنسان، لكنها أنتجت تيارات متطرفة على الصّعيد الديني، تتشدّد في ممارساتها الدينية، وتعادي الأغيار، وتنتقم من واقع التطور الحضاري المادي.

وقد حصلت حالة التطرف هذه في جميع المجتمعات بمختلف أديانهم، شملت المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوس وغيرهم، لكنها عند المسلمين أصبحت بشكل صارخ، نتيجة عدة عوامل، وقد سلّطت عليها الأضواء.

واستنادًا إلى معظم الدراسات المتخصصة، وتقارير اللجنة الخاصة بمكافحة الإرهاب التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة، يوجد الآن في العالم نحو ٢٥٠٠ تنظيمًا متطرفًا فكريًّا ودينيًّا و٣٩٠ تنظيمًا إرهابيًّا على مستوى العالم، بما فيها أمريكا وأوروبا[١].

التطرف في المجتمع اليهودي

تتصاعد في المجتمع اليهودي توجهات التطرف والتشدد، وخاصة في ظلّ كيان الاحتلال الإسرائيلي، حيث تتعدد الأحزاب والتجمعات الدينية المتطرفة، التي تطالب بالتطبيق الصارم لتعاليم الدين اليهودي، وتدعو لتهجير الفلسطينيين وإقصائهم، والاستيلاء على أراضيهم، باعتبارها أرض الميعاد لليهود، كما تعمل لهدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان المزعوم على أنقاضه، وتناوئ كلّ الديانات الأخرى حتى المسيحية.

ومن هذه المنظمات منظمة (لهافا) اليهودية المتطرفة التي كتب زعيمها (بنتسي غوفشتين)، واصفًا المسيحيين بأنّهم مصّاصو دماء، داعيًا جميع اليهود الراغبين في خلاص إسرائيل لرفع الصرخة، ومحاربة الظاهرة المنحرفة التي تدعى المسيحية، التي وصفها بأنها الدين الرجيم، كتجلٍّ لظاهرة اليمين التوراتي الإسرائيلي.

وهناك متطرفون يهود يدعون للفصل بين الرجال والنساء،

(١) صحيفة الأهرام، الأربعاء ١٣/ ٤/ ٢٠١٦م. http://www.ahram.org.eg/NewsQ/497732.aspx

وتواجههم قوات الشرطة الإسرائيلية، وقد اعتدوا في إحدى المرات على طاقم تلفزيوني. وعرضت القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، صورة لرجل متديّن يبصق على امرأة، ورجال يصيحون في وجه أفراد الشرطة (نازيون نازيون) وهم يقتادونهم من الموقع.

وقد تحدث عنهم المدير السابق لجهاز الأمن العام في إسرائيل (الشاباك) يوفال ديسكين بقوله: إنّ التيار اليهودي المتطرف يمثل دولة موازية داخل الدولة، ويتصرف بالتشدد الديني، كما أنه فوضوي وعنيف وعنصري، وينشط منذ سنوات بكلّ حرية.

ووفقًا لما نقلته عنه صحيفة لوموند الفرنسية: وصلت ظاهرة التطرف اليهودي إلى حدّ أنّ العلمانيين داخل المجتمع الإسرائيلي وصفوا المتديّنين اليهود بـ (دواعش اليهود)[١].

وقد بثت القناة العاشرة الإسرائيلية تسجيل فيديو يظهر فيه متشدّدون يهود، يعبّرون عن الفرح لمقتل الرضيع الفلسطيني علي دوابشة (١٨ شهرًا) الذي أُحرق حيًّا مع عائلته بالضفة الغربية في يوليو ٢٠١٥م[٢].

ومن أحزابهم الدينية المتطرفة (حركة غوش ايمينم) التي ترأسها الحاخام (تسفي يهود كوك) و(حزب المفدال) الذي يدعو إلى بناء مجتمع إسرائيلي على أسس المقومات الروحية والاجتماعية للديانة

(١) صحيفة الوطن نيوز. http://www.elwatannews.com/news/details/878575
(٢) صحيفة الاهرام، ٨ سبتمبر ٢٠١٦م، http://www.ahram.org.eg/NewsQ/549890.aspx

اليهودية بالالتزام بتعاليم التوراة[١].

اليمين المسيحي المتطرف

في أمريكا تيار مسيحي متشدّد أصولي، يفكر تمامًا كالتيار الإسلامي الأصولي المتشدّد، وهو الذي يروّج لنظرية صراع الحضارات، ويفسر الإنجيل تفسيرًا حرفيًّا متشددًا، وفي أعماقه الروح العنصرية عن تفوق الرجل الأبيض، وقد أثار انتباه العالم القس الأميركي في ولاية فلوريدا تيري جونز عندما أعلن في يوليو/ تموز ٢٠١٠ على مواقع اجتماعية اعتزامه إحياء ذكرى الهجمات التي استهدفت الولايات المتحدة في الـ١١ من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، عبر تنظيم ما أطلق عليه اسم «اليوم العالمي لإحراق القرآن». وعلى الرغم من مناشدة الحكومة الأميركية جونز التخلي عن الفكرة، أدت خطته آنذاك إلى مظاهرات عنيفة في عدد من الدول الإسلامية[٢].

الهند لم تسلم من التطرف

تتعايش في الهند مختلف الديانات في ظلِّ نظام ديمقراطي، ففيها أكثرية هندوسية (٩٠٠ مليون هندوسي) إلى جانب (١٨٠ مليون مسلم)، و(٤٠ مليون مسيحي)، و(٣٠ مليون سيخي)، و(١٥ مليون بوذي).

(١) الموسوعة الفلسطينية. https://www.palestinapedia.net/

(٢) https://www.alhurra.com/a/egypt-arrest-terry-jones-american-coptic/211947.html

وفي الأعوام الأخيرة عبّر الهندوس عن أصوليتهم، إذ اختاروا رئيس وزرائهم (ناريندرا مودي) الذي وُصف بأنه متعصّبٌ قوميًّا، ومتطرف دينيًّا، ومبشّرٌ بالأصولية الهندوسية، وقد ارتفع الجدل الأصولي في الهند بعد أن فاز حزب (بهاراتيا جاناتا) القومي بأغلبية كبيرة.

قال المؤلف والمؤرخ الهندي (راما شاندران غوها): إنها لحظة مهمة وقلقة، إنّ التطرف يتحرك ليصبح هو التيار السائد.

وهناك حركة (فيلق الشباب الهندوسي) التي تحاصر كنائس المسيحيين بحجة منعها من التبشير، كما تهاجم المسلمين.

وفي شهادته أمام اللجنة الفرعية لشؤون أفريقيا والصحة العالمية وحقوق الإنسان، تحدث محامي اتحاد الدفاع عن الحرية (ايهمنا اورورا) قائلًا: إنّ الهند على الرغم من تقليدها الطويل المعروف بالتسامح الديني، دخلت في العقود الأخيرة إلى معاناة الأصولية الدينية، والعنف ضدّ الأقليات الدينية[1].

وقبل مدة تناقلت وسائل الإعلام إحدى حوادث التطرف الهندوسي ضد المسلمين، وهي ما حصل في قرية (بيسارا) ذات الغالبية الهندوسية، التي تبعد نحو ٤٠ كيلومترًا عن نيودلهي، حيث هجم بعض الأهالي على منزل مواطن مسلم، يدعى (أخلاق أحمد) وقتله وسحله

(١) إميل أمين. التطرف الهندوسي يهدد تجربة الهند التاريخية بين رفض الآخر والتصدي للتسامح، جريدة الشرق الأوسط، الاثنين ٦ رجب ١٤٣٨هـ الموافق ٠٣ أبريل ٢٠١٧م.

فـي الشـوارع، اسـتجابة لنداء عبر مكبـرات الصوت، صـادر عن معبد القرية، على خلفية ما ثبت لاحقًا أنّها إشاعة مكذوبة، حول ذبحه بقرة، وأكله لحمها بمناسـبة عيـد الأضحى، وذلك ما اعتبـر إهانة للهندوس الذين يقدّسون البقر، في حادثة هي الأولى التي تشهدها القرية منذ أكثر مـن ٧٠ سـنة. وقد ثبت لاحقًا أنّ من يقف خلـف الحادثة هم من أتباع الحزب الهندوسـي المتشـدّد (بهاراتيا جاناتا) نفسه، وغرضهم كسب التعاطـف وخلق اصطفاف سياسـي خلـف الحزب بغـرض الفوز في الانتخابات[١].

(١) جريدة الحياة الصادرة بتاريخ الأحد، ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥م.

أعراض التطرف

كما في الأمراض الجسمية التي تعني وجود خلل داخل الجسم، لكن الأعراض الخارجية هي التي تؤشّر إليه، وحينما يكون هناك عرض ينبغي الإسراع للفحص والتحقق لمعرفة مكمن الداء والخلل، كذلك هو الحال في التطرف، إنه حالة داخلية تستقرّ في الفكر والنفس، ينبغي الانتباه لأعراضه فهي مؤشّرات إن لم تلاحق ينمو الخلل ويتوسّع.

فلا ينبغي لمجتمع أن يحسب نفسه بمنأى عن إصابته بهذا الداء الخطير، بل لا بُدّ من الفحص والدراسة، ورصد الأعراض، والمبادرة للتخلص منها قبل استشراء المرض واستفحاله، من هنا تأتي أهمية تسليط الضوء على مظاهر التطرف، ومن أبرزها:

١/ التعصب:

إنّ التمسك بالدين والتزام قيمه وتطبيق تشريعاته أمر مطلوب، حين يؤمن الإنسان بأنّ الدين وحيٌ من الله، ولله حقّ الطاعة على

عباده، وهو ما دعا إليه الأنبياء والرسالات الإلهية.

يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[سورة الشورى، الآية: ١٣].

إذًا .. ما هو التعصب؟

التعصّب يعني إصرار الإنسان على فهم معيّن للدين، واعتقاد الحقّ المطلق في ذلك الفهم، ورفض النقاش فيه، مما يمنع على المتعصّب تقويم فهمه، وسدّ الخلل فيه.

٢/ الانغلاق

المتطرف لا يقبل الحوار والانفتاح على الآخرين، بل لا يريد التواصل معهم، فينغلق على ذاته، وعلى فئته ومن حوله فقط، فيجعل نفسه في كهف، وهذا الانغلاق له آثار نفسية وفكرية خطيرة، حيث يضخّم حالة الغرور والتعالي، ويرسم صورة قاتمة عن الآخرين.

وهو ما تلجأ إليه الجهات المتطرفة لتحاصر أتباعها، فتمنعهم من الالتقاء مع الفئات الأخرى، أو الاطّلاع على أفكارهم، أو قراءة كتبهم.

٣/ التشدّد في الأفكار والمواقف

بحيث تتحول حتى المسائل الجانبية في الدين إلى أمور أساسية مصيرية، تفصل المسلمين عن بعضهم.

ومن أمثلة ذلك: مسألة رؤية الله في الآخرة، الشفاعة، التوسل، زيارة القبور، بعض الشعائر، بل حتى بعض الآراء داخل المذهب الواحد، فعند إخواننا السلفيين من أهل السنة، ألفت كتب تقرر إخراج بعض التوجهات الإسلامية السنية من الدين بسبب اختلافات جزئية.

وفي الحالة الشيعية نجد بعض حالات التشدد حول اعتبار بعض الشعائر الحسينية وكأنها الحدّ الفاصل بين الإيمان والضلال، أو حين يشكو شخص من ارتفاع مستوى مكبرات الصوت في المساجد والحسينيات، فيقال له أنت ضدّ الدين، وضدّ أهل البيت والحسين.

٤/ السّعي لفرض الرأي على الآخرين

حيث لا يعترف بحقّ الآخرين ان يكون لهم رأي، ولا يسمح لهم بالتعبير عن رأيهم، ويريد الزامهم برأيه.

٥/ الحدّية والعنف تجاه الآخر.

بتكفيره واتهامه بالبدعة والضلال، واستباحة سبّه ولعنه والدعوة إلى محاصرته ومقاطعته، وصولًا إلى التحريض ضده والإساءة لرموزه.

نموذج للسلوك المتطرف

تلقّى إمام (مسجد مالك بن أنس) ببلدية عين فكرون، في ولاية أم البواقي في أقصى شرق الجزائر، ضربات بمطرقة على رأسه، عندما كان يؤم الناس في صلاة المغرب، ما تسبّب له بنزيف داخلي، ونقلت صحيفة «الشروق» الجزائرية عن مصدر محلي قوله: إنّ خلافات فكرية

بين إمام المسجد وشاب متشدّد عشريني، حول شرعية الاحتفال بمولد النبي محمد ﷺ، انفجرت عندما أتى الشاب لأداء صلاة المغرب، ووقف خلف الإمام، وعند سجود الأخير باغته بضربات على رأسه بمطرقة حديدية، كادت أن تودي بحياته لولا تدخّل المصلين.

وقال المصدر إنّ الإمام يخضع الآن للعناية الطبية المركزة، بسبب إصاباته الخطيرة، مشيرًا إلى أنّ مصالح الأمن أوقفت الجاني. وكان إمام آخر توفي قبل عامين في نفس الولاية بعد تعرّضه لطعنة خنجر من الخلف وهو يؤمّ المصلين[1].

(١) صحيفة الرياض. الصادرة يوم الأحد ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ١٢ فبراير ٢٠١٢م، العدد ١٥٩٣٨.

كأيّ ظاهرة في حياة الإنسان قد يصعب حصرها في سبب واحد، وخاصة هذه الظاهرة المعقدة (التطرف)، تتشابك وتتداخل خلفها مختلف العوامل والأسباب، ولكن يمكن الإضاءة على أهم الدوافع والأسباب:

أولًا: السبب الفكري الثقافي

يتمثل في بروز بعض المدارس والتوجهات الدينية، التي تشكل أرضية للتطرف ومحضنًا له، وهي التوجهات التي تتضخم لديها بعض الجوانب من الدين على حساب الجوانب الأخرى.

إن الدين منظومة متكاملة، لا يصح الأخذ منه بمبدأ ونسيان المبادئ الأخرى، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقوم بدين الله إلّا من حاطه من جميع جوانبه»[1].

(١) كنز العمال. ج٣، ص٨٤، حديث ٥٦١٢.

وعنه ﷺ: «إنّ دين الله تعالى لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه»[١].

إنّ الدين الذي أكّد على التوحيد، أكّد على حرية الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، الآية: ٩٩].

والدين الذي حثّ على التبرّئ من أعداء أهل البيت عليهم السلام حثّ على حفظ وحدة الأمة، وعلى التقية والمداراة.

والدين الذي فرض الجهاد، رفع شعار السلم والسلام، ودعا إلى الدخول فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

لكن التوجهات المتطرفة تأخذ بجانب من الدين، فيتضخم في نظرها، على حساب بقية المبادئ والجوانب.

ثانيًا: العامل النفسي

ويتمثل بتفجّر النزعات العدوانية في نفس الإنسان، نتيجة مشاعر الإحباط والظلم الاجتماعي، والقمع السياسي، وهناك أفراد معقّدون بطبيعتهم، يبحثون عن التشدّد لينطلقوا فيه مع عقدهم.

---

(١) كنز العمال. ج١٠، ص١٧١، حديث ٢٨٨٨٦.

ثالثًا: الدوافع المصلحية

هناك من يستخدم التطرف طريقًا للسّلطة والزعامة، فقد كشفت الأحداث في العراق عن اشتراك بعض البعثيين من أتباع صدام كقيادات في تنظيم داعش الإرهابي.

وفي الوسط الشيعي هناك من لا يمتلك كفاءة علمية تقنع الناس، ولا قدرة سياسية تخوّله للتصدّي، لكنه يستطيع بالتطرف أن يحشد له أتباعًا، كما رأينا أشخاصًا نكرات يتبنّون التطرف باسم التشيّع وأهل البيت ويزايدون على المراجع والعلماء.

رابعا: الدور الخارجي:

ولا ننسى أنّ الأعداء قد يشجّعون التطرف في أوساطنا؛ لإضعاف مجتمعاتنا وتعويق مسيرة التنمية في أوطاننا، وتمزيق صفوفنا.

وليس من الضرورة أن تجتمع كلّ العوامل والأسباب المذكورة للتطرف في مورد واحد، فقد يتجه شخص أو جماعة للتطرف بسبب خلل فكري فقط، وقد يجتمع في جهة ما سببان من الأسباب المذكورة، وبنسب متفاوتة.

تحصين الشباب من التطرف

إننا بحاجة إلى حماية وتحصين شبابنا من التطرف، فقد جاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم

فإنّ الغلاة شرّ خلق الله»[١].

إنّ موسم عاشوراء فرصة عظيمة لاحتواء الشباب ضمن المجالس والمواكب، وتوجيههم نحو الاعتدال والتسامح، فعاشوراء رسالة إصلاح وتنوير، وكما قال الإمام الحسين ﷺ في البيان الأول لنهضته عندما خرج من المدينة:

«وأنّي لَم أخرُج أشِراً ولا بَطِراً، ولا مُفسِداً ولا ظالِماً، وإنَّما خَرَجتُ لِطَلَبِ الإصلاحِ في أُمَّةِ جَدّي مُحَمَّدٍ صلى اللَّه عليه وآله، أُريدُ أن آمُرَ بِالمَعروفِ وأنهى عَنِ المُنكَرِ، وأسيرَ بِسيرَةِ جَدّي مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وسيرَةِ أبي عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ ... فَمَن قَبِلَني بِقَبولِ الحَقِّ فَالله أولى بِالحَقِّ، ومَن رَدَّ عَلَيَّ هذا أصبِرُ حَتّى يَقضِيَ اللَّهُ بَيني وبَينَ القَومِ بِالحَقِّ، ويَحكُمَ بَيني وبَينَهُم بِالحَقِّ، وهُوَ خَيرُ الحاكِمينَ»[٢].

(١) بحار الأنوار. ج٢٥، ص٢٦٥، حديث٦.
(٢) أحمد بن أعثم الكوفي. كتاب الفتوح، ج ٥، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص٢١، وأيضًا بحار الأنوار. ج ٤٤ ص ٣٢٩.

اتجاهات التكفير في التراث الديني

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ فَتَبَيَّنُـوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْـقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّـلَامَ لَسْـتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّـهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٤].

ماذا يعني التكفير وماذا يترتب عليه؟

التكفيـر هو نسـبة أحـد من أهل القبلـة إلى الكفر، فمـن هو خارج الإسـلام لا يطلق على تسـميته بالكفر (تكفير)؛ لأنه كافر، وهناك معانٍ أخـرى للتكفير، منها: تكفيـر الذنوب والسـيئات، أي محوها، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩٣].

ومنها: إخراج الكفارة عن بعض المخالفات، كحنث اليمين أو ترك الصيام الواجب، أو غيرهما من الموارد المشابهة، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٨٩].

والبحـث هنـا حول التكفيـر بالمعنى الأول، وهو نسـبة أحد يُظهر الإسلام إلى الكفر، وتترتب عليه نتائج وآثار خطيرة، تتضح بعد عرض الفكرة التالية:

مكاسب الانتماء إلى الدين

يفترض أنّ انتماء الإنسان للدين يحقق له ثلاث مسارات من النتائج والآثار:

أولًا: الاطمئنان النفسي والاستقرار الفكري؛ لأنه يجيب على أسئلته الحائرة عن وجوده وعن الكون والحياة، كما يشعره بالاتصال بالقوة المطلقة المسيرة للوجود.

ثانيًا: تأمين المستقبل والمصير الأخروي، حيث يعتقد الإنسان أنّ تديّنه سبيل خلاصه ونجاته في الدار الآخرة.

هذان المساران لا يتأثران بالتكفير؛ لأنهما يرتبطان بداخل الإنسان، فالمؤمن بدينه يشعر باطمئنان نفسي، وثقة بمستقبله الأخروي، سواءً أقرّ الآخرون بإيمانه أو انكروه.

ثالثًا: الاعتبار والحماية الاجتماعية حيث يصبح عضوًا في المجتمع الديني، يتمتع بمكاسب وامتيازات العضوية.

ففي الإسلام يكون له احترامه وحقوقه كمسلم، بدءًا من إلقاء التحية الخاصة عليه (السلام عليكم) حيث يرى البعض أنها تختص بالمسلم، أما غير المسلم فيُحيّى بغير هذه الصيغة.

مرورًا بعصمة دمه وماله، وطهارته، وحمله على الصحة في أقواله وأفعاله، ودخول المساجد والحرمين الشريفين، والتزاوج والإرث، والدفن في مقابر المسلمين، وقبول الشهادة، وصولًا إلى إمكان

تبوئه المناصب القيادية كالقضاء والولايات ورئاسة الدولة. وكذلك استحقاقه الحماية والنصرة لو تعرض للعدوان، وفي بعض هذه القضايا نقاش بين الفقهاء.

إنّ التكفير يعني إسقاط الهوية الدينية مما يلغي كلّ تلك الحقوق والامتيازات، بل وقد يترتب عليه إجراءات عقابية كأحكام الردة، فالمتفق عليه بين فقهاء المسلمين الحكم بقتل المرتد، وهو ما يثير تساؤلًا ملحًّا خاصة في هذا العصر، الذي تعزّزت فيه الحريات الفكرية والدينية، والإسلام يؤكد على مبدأ حرية المعتقد، وعدم الإكراه في الدين، كما يصرح القرآن بذلك، فكيف يحكم بقتل المرتد؟!

- يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٥٦].
- ويقول تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩].
- ويقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[سورة الكهف، الآية: ٢٨].
- ويقول تعالى: لآ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان: ٢١-٢٢].

بالطبع للفقهاء أدلتهم التي يستندون إليها في الحكم بقتل المرتد. وأهمها احاديث مروية في السنة النبوية، وإجماع الفقهاء.

رأي آخر في حكم المرتد

لكن هناك رأيًا آخر لبعض العلماء المعاصرين، وهو أنّ الارتداد يوجب القتل حين يكون التحاقًا بمعسكر العدو، أما إذا كان مجرد تغيير فكري عقدي فلا يستحق ذلك.

وقد مال إلى هذا الرأي شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت (١٣١٠م ـ ١٣٨٣هـ) (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م)، ومن فقهاء الشيعة الشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م) (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م)، والسيد محمد حسين فضل الله (١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م) (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م) [١].

وقد أصدر الباحث الفقيه الدكتور طه جابر العلواني[٢] كتابًا بعنوان (لا إكراه في الدين ـ إشكالية الردة والمرتدين عن الإسلام من صدر الإسلام إلى اليوم)[٣] ناقش فيه الرأي الفقهي السائد بقتل المرتد عن الإسلام، وانطلق في بحثه من النصوص والمبادئ الدينية التي تؤكد حرية اختيار الدين، وقد تناول النصوص ذات العلاقة بالموضوع ليصل إلى نتيجة خلاصتها: عدم وجود نص قرآني يشرع هذا الحد، كما تخلو السنة الفعلية من ذلك، فلم نجد واقعة واحدة في العصر النبوي تفيد

(١) راجع: الشيخ حسين أحمد الخشن. الفقه الجنائي في الإسلام الردة نموذجًا، الطبعة الأولى ٢٠١٥م، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي)، ص٢٥.

(٢) افتقدته ساحة المعرفة الإسلامية مؤخرًا بتاريخ ٤ مارس ٢٠١٦م رحمه الله.

(٣) صدر عن مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م، والثانية بالاشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي سنة ٢٠٠٦م، ويقع في ١٩٨ صفحة من القطع الكبير.

بتطبيق عقوبة دنيوية ضد من يغيّرون دينهم، مع ثبوت ردة عناصر كثيرة عن الإسلام في العهد النبوي، ومعرفة النبي بذلك، أما السنة القولية الواردة فيحتمل أن تخص من ينتقل إلى معسكر الأعداء.

وقد ناقش في بحثه رأي الفقهاء بمختلف مذاهبهم، ليستنتج أنّ الردة التي تستوجب العقوبة هي التي تتمثل في الانتقال إلى جبهة العدو.

وقد ذكر في مقدمة الكتاب، أنه أعدّ هذا البحث سنة ١٩٩٢م، وكان يريد نشره لولا أنه تلقى تحذيرات بأن تبنيه لهذا الرأي قد يؤثر على وضع مؤسسته (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، فلما استقال من رئاستها عام ١٩٩٦م، وأصبح رئيسًا للجامعة الإسلامية في ماليزيا أعاد التفكير في طباعة الكتاب، فجاءته تحذيرات من إدارة الجامعة بأنّ ذلك سيؤثر على سمعة الجامعة، وقد يدفع لاتخاذ مواقف ضدها، فأخّر نشره، ولم ينشره إلّا بعد عشر سنوات من تأليفه، يقول في مقدمته: (بدأ السن يتقدم، والأمراض تتكاثر، ولا أريد أن ألقى الله وقد كتمت علمًا منّ الله به علي ...)[1].

كما صدر مؤخرًا بحث علمي حول ذات الموضوع عنوانه:

(الفقه الجنائي في الإسلام ـ الردة نموذجًا) للباحث الفقيه الدكتور الشيخ حسين الخشن من لبنان، وصل فيه إلى نفس النتيجة.

(١) لا إكراه في الدين: بحث في إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، ص١٢.

ونحن هنا لسنا في مورد مناقشة هذا الموضوع، وإنما نشير إلى خطورة التكفير باعتباره حكمًا شرعيًّا له آثاره المصيرية الخطيرة؛ لأنه يكون افتراءً على الدين حينما لا يكون في محلّه، وللنتائج المترتبة عليه تجاه من يصدر ضدّه.

التكفير وإسقاط الجنسية

التكفير إسقاط للهوية الدينية، وهو ما يشبه إسقاط أو سحب الجنسية الوطنية، الذي يترتب عليه آثار مدمرة لحياة المواطن، لذلك تتشدد القوانين والمواثيق الدولية في هذا الموضوع، وتتفاوت البلدان في الالتزام بها، حيث تنص المادة ١٥ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على حقّ كلّ فرد في أن تكون له جنسية، وعلى ألّا يحرم أحد من جنسيته تعسّفًا.

وبحمد الله، فإنّ بلادنا ليست من الدول التي تمارس هذا التعسّف، فلم يجر إسقاط الجنسية إلّا في حالات معدودة نادرة، بينما تقوم بذلك دول أخرى وبشكل جماعي.

وهذه ميزة من الميزات المهمة لبلادنا، نقول هذا وبلادنا تحتفل باليوم الوطني مستذكرين الحديث الشريف (حبّ الوطن من الإيمان) الذي أورده الشيخ عباس القمي في سفينة البحار[1].

(١) الشيخ عباس القمي. سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، ج ٨، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (قم: دار الأسوة للطباعة والنشر)، ص ٥٢٥.

وما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: عمرت البلدان بحبّ الأوطان[1].

إنّ حبّ الوطن والولاء له فطرة إنسانية باركها الدين، وشجع عليها، ولا يتحقق ذلك بمجرد رفع الشعارات، وإنما بالعطاء للوطن، والدفاع عنه، وتأكيد المحبة والتآلف بين أبنائه، ليكونوا صفًّا واحدًا في مواجهة الأخطار والتحديات.

(١) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٤٥، حديث٥٠.

استحقاق الهُويّة الدينية

يفتـرض في الإيمـان أن يكون نابعًا من نفس الإنسـان، فلا يفرض عليه من خارجه، فالدين في حقيقته وعمقه انفتاح مباشـر بين الإنسـان وربـه وخالقه، دون حواجز ولا وسـائط، حيث يواجه الإنسـان أسـئلة الوجـود، وتحديـات الحيـاة، فتنتابه الحيرة، ويشـعر بالضعـف، وهنا يحتـاج إلى الاتصال بالقوة المطلقة، (الله تعالى)، ليسـتمد منه الثبات والعـون والهدي والرشـاد، في اتصال مباشـر كما يقول تعالـى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٨٦].

وإذا كان اللطف الإلهي اقتضى بعث أنبياء ورسـل إلى الناس، كما اقتضـت طبيعة الحياة البشـرية إقامة نظام اجتماعـي على هدي الوحي الإلهي، فإنّ ذلك لا يعني إقامة أيّ حاجز بين الله وبين عباده، فالأنبياء والأئمة يدعون الناس للاتصال بربهم والانفتاح المباشر عليه، ودورهم

الرئيس هو مساعدة الناس في ذلك، وإزالة الموانع والحواجز.

إنّ الأنبياء لا يفرضون الإيمان بالله على الناس، وإنما يدعونهم إلى الإيمان، ويشجعونهم على استخدام عقولهم للاهتداء إلى الله، كما قال الإمام علي عليه السلام: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[1].

من هنا لا توجد أية ضوابط ولا شروط في انفتاح الإنسان على ربه، وإيمانه به، واتصاله معه، لكنّ هناك ضوابط وشروطًا تتصل بتنظيم العلاقات الاجتماعية، لترتيب الآثار على الانتماء لمجتمع المسلمين.

ضوابط الانتماء للمجتمع الإسلامي: متى يستحق الإنسان الهوية الدينية؟

ذكر الفقهاء أنّ هناك ثلاثة طرق يحكم من خلالها بإسلام أيّ شخص وانتمائه لمجتمع المسلمين، وهي: النص، والتبعية، والدلالة.

أولًا: النص

وذلك بإعلان الشهادتين، فيحكم بإسلام من أظهر الشهادتين، سواء علمنا باعتقاده الباطن بالإسلام أو لم نعلم، نظرًا إلى ظاهر القول، فلا يُتجسّس عليه، إذ ليس قبول إسلام من أظهر الإسلام؛ لكون إظهاره كاشفًا عن الإسلام الواقعي بالضرورة، بل لكونه موجدًا ومحقّقًا للإسلام الظاهري.

---

(١) نهج البلاغة. خطبة رقم (١)، من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم.

وقد ورد ـ كما في الطبري ـ أن سبب نزول الآية الكريمة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: (قتيل قتلته سريّة لرسول الله ﷺ بعد ما قال: «إنيّ مسلم»، أو بعد ما شهد شهادة الحق، أو بعد ما سلَّم عليهم لغنيمة كانت معه، أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه)[1].

وجاء في صحيح مسلم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟[2].

وفي رواية أخرى، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَنَمٍ لَهُ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ، فَعَدَوْا عَلَيْهِ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوْا بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ

(١) محمد بن جرير الطبري. تفسير الطبري، تفسير سورة النساء، القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾، ج٩، ص٧٢.

(٢) صحيح مسلم. كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، حديث ١٦٩.

اللَّـهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[سورة النساء، الآية: ٩٤][1].

بل حتى لو علمنا نفاق من أعلن إسلامه وعدم مطابقة تظاهره بالإسلام للواقع، فقد ذهب الفقهاء إلى كفاية ذلك في الحكم بإسلامه.

وأوضح دليل على ذلك تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين كمسلمين، مع نصّ الوحي على كذب ادّعائهم للإسلام، حيث يقول تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[سورة المنافقون، الآية ١].

ومع كلّ الأدوار القذرة التي قام بها المنافقون في عهد رسول الله ﷺ، إلّا أنه لم يخرجهم من الإسلام، ولم يصادر أيّ حقّ من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة كسائر المسلمين، يحضرون المساجد، ويُدلون بآرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال.

بل وأكثر من ذلك كان رسول الله ﷺ يبذل لهم الإحسان، ويحوطهم بمداراته، ويشملهم بكريم أخلاقه.

فقد (مرض رأس النفاق عبدالله بن أُبي، فجاء ولده عبدالله إلى النبي وأبوه يجود بنفسه، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي إنك إن لم تأتِ أبي عائدًا كان ذلك عارًا علينا.

(١) الحسين بن مسعود البغوي. تفسير البغوي، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، (الرياض: دار طيبة للنشر)، ج١، ص ٤٦٦.

فاستجاب رسول الله وقام إلى عيادته فدخل عليه وعنده جمع من المنافقين، فقال ابنه عبدالله: يا رسول الله، استغفر له، فاستغفر له.

فقال عمر: ألم ينهك الله يا رسول الله؟

فأعرض، فأعاد عليه عمر.

فقال: إني خيّرت فاخترت إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[سورة التوبة، الآية: ٨٠].

قال الواقدي: ومرض عبدالله بن أُبي في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه، دخل عليه رسول الله، وهو يجود بنفسه.

فقال: قد نهيتك عن حبّ اليهود.

فقال ابن أُبي: أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه؟

ثم قال: يا رسول الله ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مِت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفّن فيه.

فأعطاه قميصه الأعلى، وكان عليه قميصان، فقال ابن أُبي: الذي يلي جلدك.

فنزع رسول الله قميصه الذي يلي جلده فأعطاه.

ثم قال: صلّ عليَّ واستغفر لي.

فحضر رسول الله غسله، وحضّر كفنه، ثم حمل إلى موضع الجنائز فتقدم رسول الله ليصلّي عليه، فلما قام وثب إليه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، أتصلّي على ابن أُبي وقد قال يوم كذا كذا، ويوم كذا كذا؟ فعدّ عليه قوله.

فتبسم النبي وقال: أخِّر عني يا عمر!

فلما أكثر عليه عمر قال: إني قد خيّرت فاخترت، ولو أعلم أني إذا زدت على السبعين غفر له زدت عليها، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[1].

أحكام في تحقق الإسلام

١. اقتصر عامة الفقهاء على الشهادتين وأنّ غيرهما ليس شرطًا في تحقق الإسلام.

٢. أضاف بعض الفقهاء المعاد وأركان الشريعة من الصلاة والصوم والزكاة والحج، لكن أغلب الفقهاء لم يشترطوا ذلك.

نعم .. لا يصح أن ينكر المعاد، وأيّ ضروري من ضروريات الدين، بعد أن يعرف ضرورته، خصوصًا إذا كان إنكاره نوعًا من التكذيب للنبي والرسالة.

٣. لا يشترط في الإسلام أن يكون مقرونًا بالاعتقاد بصفات الله

(١) محمد بن عمر الواقدي. كتاب المغازي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج٣، ص١٠٤٣.

الثبوتية أو السلبية، ولا الصفات المعتبرة في النبي كالعصمة.

٤. اختار بعض الفقهاء الاكتفاء من اليهودي والنصراني بشهادة الرسالة فقط؛ لكون الشهادة الأولى متحققة منهما.

٥. لا توجد لغة خاصة يفترض بها إبراز الشهادتين، فيعلن إسلامه بلغته بما يؤدي معنى الصيغة المعهودة بالعربية.

٦. لا توجد صيغة ملزمة للشهادتين، فيمكن الاكتفاء بأيّ صيغة مرادفة، فيها إقرار بمضمون الشهادتين.

٧. لا يعتبر بعد إظهار الشهادتين اليقين بمضمونهما، فلو علمنا أنه عقد قلبه على ذلك إجمالًا كفى.

٨. لا يشترط أن يكون عن دليل وبرهان.

٩. لا يشترط التبري من كلّ دين غير الإسلام؛ لأنّ الإقرار بما يقتضي الإسلام يوجب ذلك.

ثانيًا: التبعية

وتعني أمرين: التبعية للأبوين، والتبعية لدار الإسلام.

الأول: التبعية للأبوين:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّ العبرة بإسلام أحد الأبوين، فيحكم بإسلام الصغار بالتبعية.

ويحكم بإسلام الولد ذكرًا كان أو أنثى، وتجري عليه جميع أحكام

المسلمين، ولا خلاف في إسلامه حتى بعد ارتداد أبويه، استصحابًا للحالة السابقة.

ولا فرق في التبعية بين إسلام كلا الأبوين أو أحدهما، لتسالم الفقهاء على تبعية الولد لأشرف الأبوين.

وذهب جملة من الأعلام إلى تبعية الأطفال لإسلام الأجداد من حين إسلامهم، سواء كانوا لأبٍ أو لأم. وقيَّد بعضهم بما إذا كان الجدان قريبين.

وذهبوا إلى أنّ إسلام الجدّ وإن علا، يستتبع الحكم بإسلام الأحفاد الصغار ومن في حكمهم، ولو كان الأب حيًّا كافرًا.

والمشهور بين الفقهاء: أنّ ولد الزنا مسلم كسائر المسلمين للتبعية، إذا كان الزاني مسلمًا، وخالف في ذلك بعض الفقهاء.

الثاني: التبعية لدار الإسلام:

أيّ شخص في دار الإسلام لم تعرف هويته الدينية محكوم بأنه مسلم، حتى يثبت العكس، ومن ذلك الحكم بإسلام لقيط دار الإسلام، حسب مشهور الفقهاء.

ودار الإسلام هي البلاد التي ينفذ فيها حكم الإسلام، أو يسكنها المسلمون، بل اكتفى الفقهاء بوجود مسلم واحد محتمل الاستيلاد في دار الكفر.

فدار الإسلام هنا أوسع منها فيما يطلق عليه (سوق المسلمين)، ولو وجد ميت أو قتيل في دار الإسلام تجري عليه أحكام الإسلام.

الثالث: الدلالة

وهي الدلالة بالفعل كأداء الأفعال المختصة بالإسلام، مثل الصلاة، فلو رأيت شخصًا يؤدي أفعال الصلاة تحكم بإسلامه، وكذا لو رأيته لابسًا ثوبي الإحرام، وأمثال ذلك من الممارسات الدينية الإسلامية.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ)[1].

إنّ ذلك يوضح لنا منهجية الاستيعاب والتسامح في الإسلام، وأنّ الانتماء إلى المجتمع الإسلامي سهل لا تعقيد فيه، وأنّ التشدد والتسرع في تكفير الناس، وسلب حقوقهم، ليس نهجًا إسلاميًّا، لكن الأمة ابتليت بهذه النزعات من وقت مبكر، وعانت من الاستبداد لزمن طويل.

(١) صحيح البخاري. كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب فضل استقبال القبلة، حديث ٣٨٧.

الأصل بقاء المسلم على إسلامه، حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، بأن يعلن الكفر بقول صريح، كقوله: أشرك بالله، أو أكفر بالله، أو خرجت من الإسلام، وكذلك لو سبّ الذات الإلهية، أو استخف أو استهزأ بها، وكذلك من سبّ رسول الله ﷺ، أو أيّ نبي من الأنبياء، هذا ما يتفق عليه المسلمون، ويجب قبل تكفير أيّ مسلم النظر والتفحص فيما صدر منه من قول أو فعل، فليس كلّ قول أو فعل فاسد يعتبر مكفرًا.

ولا ينبغي أن يُكفِّر مسلم إن أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في كفره خلاف، ولو على رواية ضعيفة.

وما يشك في أنه كفر لا يحكم به، فإنّ المسلم لا يخرجه من الإيمان إلّا جحود ما أدخله فيه، إذ الإسلام الثابت لا يزول بالشك، فإن كان في المسالة وجوه توجب التكفير، ووجه واحد يمنعه، فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير، هذا ما يقرّره الفقهاء.

لكـن ـ وللأسـف الشـديد ـ فُتِحت منافذ توسـع فيهـا البعض من المتشدّدين، مما ترك المجال واسعا لاتجاهات التكفير، وأبرزها أربعة اتجاهات:

١ / اتجاه الخوارج

ظهـر هذا الاتجـاه ـ وهو أبكر اتجاهات التكفير ـ على إثر انشـقاق جماعـة من جيـش الإمام علي في معركـة صفين، رفضًـا لقبول الإمام بالتحكيـم، وإيقـاف الحرب مع جيـش معاوية، ولم يكـن الإمام علي راغبًـا في قبول التحكيـم، لكن الرأي العام في جيشـه كان يضغط بهذا الاتجاه، قال عليه السلام في خطبة له:

«أَيُّهَـا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْـرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّه، أَخَذَتْ مِنكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَك.

لَقَـدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُـورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَصْبَحْـتُ الْيَـوْمَ مَنْهِيًّا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْـسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!»[1].

كان مطلـب الخوارج أن يعتـرف الإمام بالخطأ في قبول التحكيم، ويعتـذر، وينقـض العهد، وفيهم مجموعة من القـرّاء والعبّاد لكن على غير وعي، كما تنبأ رسول الله صلى الله عليه وآله بهم.

حيـث ورد عنـه صلى الله عليه وآله كمـا فـي صحيـح البخـاري، عَـنْ أَبِي سَـعِيدٍ

(١) نهج البلاغة. الخطبة ٢٠٨.

الْخُـدْرِيِّ أَنَّـهُ قالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَقُـولُ: «يَخْرُجُ فِيكُـمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[١].

وروي أنَّ عَلِيًّا لَمّا وَجَّهَ إلى الخوارج عَبدَ اللّهِ بنَ عَبّاسٍ لِيُناظِرَهُم، قـالَ لَهُم: (مَا الَّذي نَقَمتُم عَلى أميرِ المُؤمِنينَ؟ قالوا: قَد كانَ لِلمُؤمِنينَ أميرًا، فَلَمّا حَكَّمَ في دينِ اللّهِ خَرَجَ مِنَ الإيمانِ، فَليَتُب بَعدَ إقرارِهِ بِالكُفرِ نَعُد لَهُ.

فَقالَ ابنُ عَبّاسٍ: ما يَنبَغي لِمُؤمِنٍ لَم يَشُـب إيمانَهُ شك أن يُقِرَّ عَلى نَفسِهِ بِالكُفرِ.

قالوا: إنَّهُ قَد حَكَّمَ.

قـالَ: إنَّ اللّـهَ عَزَّ وجَلَّ قَد أَمَرَنـا بِالتَّحكيمِ في قَتلِ صَيـدٍ، فَقالَ عَزَّ وجَـلَّ: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَـدْلٍ مِّنكُمْ»، فَكَيفَ في إمامَةٍ قَد أشـكَلَت عَلَى المُسلِمينَ؟!)[٢].

وقد كتبوا إلى عليٍّ رسالة جاء فيها: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَغْضَبْ لِرَبِّكَ، وَإِنَّمَا غَضِبْتَ لِنَفْسِكَ وَإِنْ شَهِدَتْ عَلَى نَفْسِكَ بِالْكُفْرِ وَاسْتَقْبَلْتَ التَّوْبَةَ نَظَرْنَـا فِيمَـا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَإِلَّا فَقَدَ نَابَذْنَاكَ عَلَى سَـوَاءٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) صحيـح البخـاري. كتاب فضائل القرآن، باب إثم مـن راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به، حديث ٤٧٨٨.
(٢) بحار الأنوار. ج٣٣، ص٣٤٩.

الْخَائِنِينَ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٥٨]»[١].

تأصيل ديني لخلاف سياسي

كان الخلاف في الأصل سياسيًّا حول قبول التحكيم، لكنه تحول إلى خلاف ديني، حيث اعتبروا قبول التحكيم كبيرة، ونظّروا لمسألة حكم مرتكب الكبيرة، وتوسع هذا البحث فيما بعد وتعمّق، ليصل إلى مسألة أنّ العمل هل هو جزء من الإيمان أم لا؟

فإذا كان العمل جزءًا من الإيمان، فإن أخلّ به الإنسان عامدًا مصرًّا خرج من إيمانه، وإن لم يكن جاحدًا له، أما إذا لم يكن جزءًا من الإيمان، يبقى العاصي مؤمنًا، ولكن يوصف بالفسق وليس بالكفر أو الشرك.

وذهب الخوارج إلى أنّ مرتكب الكبيرة إما كافر أو مشرك وليس مؤمنًا.

حيث ذهبت فرقة منهم يطلق عليها الأزارقة، إلى أنّ مرتكب المعاصي مشرك، وليس كافرًا فقط، من غير فرق بين الصغيرة والكبيرة.

وذهبت النجدية منهم إلى أنّ مرتكب الكبيرة مشرك، وأما مرتكب الصغائر فهو فاسق.

وذهبت الإباضية إلى كون الارتكاب كفرًا لا شركًا، والكفر عندهم أعمّ من كفر الجحود وكفر النعم، فمرتكبها من المؤمنين كافر، كفر

(١) ابن كثير الدمشقي. البداية والنهاية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج٧، ص٣١٨.

نعمة لا كفر الجحود.

وذهبت المعتزلة إلى أنّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، فضلًا عن كونه مشركًا، نعم اتفقت المعتزلة والخوارج على كونه مخلّدًا في النار إذا مات غير تائب.

وذهبت الإمامية والأشاعرة وأهل الحديث إلى كون مرتكب الكبيرة مؤمنًا، لكنه فاسق، وغير مخلّد في النار.

الاحتجاج بسيرة رسول الله ﷺ

قال الإمام علي عليه السلام مخاطبًا الخوارج، منكرًا عليهم الحكم بتكفير من يرونه ارتكب كبيرة من الكبائر: «فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ»[1].

(١) نهج البلاغة. الخطبة ١٢٧.

٢ / الاتجاه التكفيري السلطوي

تبنّى بعض الحكام الأمويين والعباسيين قمع الناس باسم الدين، وذلك من أجل إرهاب الناس وإرعابهم ليخضعوا للسلطة، وليظهر الحكام أنفسهم أنهم حماة للدين، فترصدوا بعض ذوي الآراء المختلفة دينيًّا وحكموا عليهم بالكفر، وكانوا يتقربون إلى الله أمام جمهور الناس بقتلهم، وفيما يلي عينات من هذه الممارسة السلطوية:

قصة الجعد بن درهم:

أقام الجعد بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أمية، فهرب منهم، فسكن الكوفة، وفي عام (١٠٥هـ/ ٧٢٤ م) استلم الحكم في دمشق هشام بن عبد الملك، وعين خالد بن عبد الله القسري واليًا على الكوفة، فقبض على الجعد بن درهم، وفي أول يوم من أيام عيد الأضحى من ذلك العام، قال خالد وهو يخطب خطبة العيد:

أيها الناس ضحُّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عمّا يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر[١].

إرهاب المهدي العباسي

كان المهدي ـ الذي حكم الأمة من سنة ١٥٨ حتى مات سنة ١٦٩هـ ـ مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم، فكان دائمًا يعاقبهم

(١) البداية والنهاية. ج ٩، ص٣٧٩.

بالقتل، لذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفي من يحب أن يتشفّى من عدو أو خصم..

(كان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقًا وعلمًا وخبرة الوزير أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين، وكان متقدّمًا في صناعته، وله ترتيبات في الدولة، وصنف كتابًا في الخراج، وهو أول من صنف فيه..

حصل حقد عليه من الربيع الحاجب، فوشى عليه عند المهدي بأنّ ابنه محمدًا متّهم في دينه، فأمر المهدي بإحضاره (الولد) وقال: يا محمد، اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن، فقال المهدي لأبيه الوزير أبي عبيد الله معاوية بن يسار: يا معاوية، ألم تخبرني أنّ ابنك جامع للقرآن؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكنه فارقني منذ سنين وفي هذه المدة نسي القرآن.

فقال المهدي: قم فتقرب إلى الله بدمه. فذهب ليقوم فوقع.

فقال العباس بن محمد: يا أمير المؤمنين، إن شئت أن تعفي الشيخ، ففعل، وأمر المهدي بابنه فضرب عنقه)[1].

هكذا يكون مجرّد الاتهام في الدين، والارتباك في قراءة القرآن مبرّرًا لقتل هذا الإنسان، وأن يُطلب من أبيه مباشرة عملية القتل!!.

---

(١) علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق، طبعة ١٤١٥هـ، ج٥٩، ص٢٥٧، و٨٣. وأيضًا محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ٨، ص١٣٩.

محنة خلق القرآن

وخلفاء آخرون مارسوا العنف والقمع تجاه من يقولون برأي مخالف في بعض المسائل العقدية، كما حصل فيما عرف بمحنة القول بخلق القرآن.

فقد كان الخليفة هارون الرشيد يتبنّى القول إنّ القرآن ليس مخلوقًا، ويقمع القائلين بفكرة خلق القرآن، حتى قال يومًا: بلغني أنّ بشرًا المريسي يزعم أنّ القرآن مخلوق، لله عليَّ إن أظفرني به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحدًا قط[١]. ولما علم بشر ظلّ متواريًا أيام الرشيد.

وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته؛ لأنه قال: القرآن مخلوق[٢].

وفي عهد الخليفة الواثق العباسي تغيّر رأي الحاكم، فتعرض من يقول بأنّ القرآن ليس مخلوقًا للقتل والتنكيل، كما حصل لأحمد بن نصر الخزاعي الذي قبض عليه والي بغداد، وامتحنه الواثق فأصرّ على رأيه أنّ القرآن ليس بمخلوق، وأنّ الله يُرى في الآخرة، فدعا الخليفة بالسيف، وقال: إني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربًّا لا نعبده، وضرب عنقه، وأمر به فحمل رأسه فنصب بالجانب الشرقي

(١) أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج٧، ص٦٨.
(٢) البداية والنهاية. ج١٠، ص٢١٥.

أيامًـا، ثم بالجانب الغربي أيامًا، وعلقت برأسـه ورقة «هذا رأس أحمد بن نصر الذي دعاه الإمام الواثق إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلّا المعاندة، فعجّله الله إلى ناره»[١].

٣ / التكفير المذهبي ومنكر الضرورة

تُصنَّف قضايا الاعتقاد الديني إلى أقسام، منها ما كان أصولًا للدين، ومنها ما يكون من ضروريات الدين.

والأصـول هي ركائز الإيمـان التي لا يتقوّم إلّا بهـا، والمتفق عليه أصلان، هما: التوحيد والنبوة، فمن لا يؤمن بهما لا يكون مسلمًا، مهما كان سبب عدم إيمانه، سواء كان معذورًا أم غير معذور.

واختلفوا في المعاد، هل هو ركن مقوّم للإيمان بحيث لو لم يؤمن به ولو كان لجهل فهو غير مسلم؟

قـال بـه بعض، ولـم يقبله آخرون، مـع الاتفاق على أنه من أسـس الاعتقاد الديني، لكن من جهله وأقرّ بالشهادتين يكون مسلمًا.

وقـد دلت النصوص والسـيرة علـى الأصلين كمـا ورد عن الإمام الصـادق عليه السلام أنه قـال: «الْإِسْـلَامُ: شَـهَادَةُ أَنْ لَا إِلهَ إِلاَّ اللـهُ، وَالتَّصْدِيقُ بِرَسُـولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، بِهِ حُقِنَتِ الدِّمَاءُ، وَعَلَيْهِ جَـرَتِ الْمَنَاكِحُ وَالْمَوَارِيثُ،

(١) شـمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تاريخ الإسلام، تحقيق الدكتور عمر عبدالسـلام تدمـري، الطبعة الأولـى ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الكتـاب العربي)، ج١٧، ص٢٩.

وَعَلى ظَاهِرِهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ»[١].

والسيرة العملية لرسول الله ﷺ قبول إسلام من نطق بالشهادتين. دون أن يطلب من أحدٍ عند إسلامه إعلان الاعتقاد بالمعاد.

هذه أصول الدين التي بها يستحقّ الإنسان هُويّة الإسلام، وهناك أصول المذهب، فالانتماء لمذهب أهل البيت عليهم السلام يتحقق بالاعتقاد بالأصول الخمسة (التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد).

الضروريات

وهي مفاهيم لا ترقى إلى مستوى الأصول بحيث يتوقف الانتماء للدين على الإيمان بها، لكنها مفاهيم أساسية تتسم بالوضوح والبداهة في مجتمع المسلمين، من قبيل عصمة النبي في التبليغ، أو خاتمية نبوته، ومثل الصلاة والصوم والحج، كما أنّ هناك ضرورات مذهب تختلف من مذهب إلى آخر.

ولم يرد هذا المصطلح (الضروريات) في النصوص الدينية، وإنما استوحاه العلماء منها، وقسَّموه إلى ضروري عقدي وضروري فقهي.

من ذلك يتضح أنّ الإنسان إذا لم يؤمن بأصول الدين حتى لو كان جاهلًا لا يكون مسلمًا، أما الضرورة فلا يوجب الخروج من الدين عدم الإيمان بها جهلًا أو غفلة.

فإذا أنكر الضروري مع علمه بضروريته في الدين، وكان إنكاره يرجع

(١) الكافي. ج٢، ص ٢٥، حديث ١.

إلى تكذيب النبي، أو إنكار رسالته، فهو يوجب الكفر، وبعضهم عدّ إنكاره بحدّ ذاته موجبًا للكفر، وليس إذا كان راجعًا لتكذيب النبي فقط.

وقد ينقلب الضروري إلى نظري، أي يكون محلًّا للنظر والنقاش، وبالعكس، فيصبح النظري المختلف فيه بدهيًّا واضح القبول، وذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والمجتمعات.

لذلك هناك من يناقش في ادّعاء الضروريات؛ لأنها لم ترد في نصّ، قال الميرزا القمي صاحب القوانين: اختلف العلماء في ضرورات الدين، يحكم أحدهم بأنّ هذا الشيء من ضرورات الدين، ويحكم الآخر بأنّ عدمه من ضرورات الدين[١].

ومن هنا اعترض أحد علماء المملكة، وهو الشيخ الدكتور حاتم الشريف العوني، على البيان الذي صدر عن مجمع الفقه الإسلامي الدولي[٢] في الفقرة التي جاء فيها: (تحريم تكفير أيّ فئة من المسلمين تؤمن بالله ورسوله ﷺ وتؤمن بأركان الإسلام وأركان الإيمان ولا تنكر معلومًا من الدين بالضرورة).

ورأى أنّ هذه الفقرة تقرير للتكفير وفتح لأبوابه المشرعة:

فمع أنّ التكفير بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة مقالةٌ قد سبق

(١) الشيخ محمد جواد مغنية. فلسفات إسلامية، الطبعة السادسة ١٩٩٣م، (بيروت: دار الجواد)، ص١٤٨.

(٢) انعقدت الدورة الحادية والعشرين لمؤتمر مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي في الرياض بتاريخ ١٥ – ١٩ محرم ١٤٣٥هـ الموافق ١٨ – ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٣م والقرار المشار له رقم ٢٠٢.

إلى إطلاقها كثير من العلماء؛ إلّاَ أنها مقالة قد جرّ خطأُ إطلاقِها شرورًا كثيرةً على المسلمين قديمًا وحديثًا، وكان المرجو من جهة علمية بثقل مجمع الفقه الإسلامي الدولي أن تتجاوز تلك الأخطاء في تراثنا، ولا تكررها دون تحرير، ولا تصحيح، ولا تجديد.

إنّ تكفير منكِر المعلوم من الدين بالضرورة بهذا الإطلاق، سيكون سببًا في تكفير البعض من المشهود لهم بالورع والتقوى عبر تاريخنا الإسلامي!! نعم.. إلى هذا الحدّ سيكون أثره السلبي خطيرًا!!

فهذا قدامة بن مظعون ﷺ، وهو من أهل بدر، ومع ذلك ففي خلافة عمر بن الخطاب قد أنكر التحريمَ المطلقَ لشرب الخمر، فشربها، حتى سَكِرَ، متأوّلًا آيةً في كتاب الله تعالى على عدم إطلاق تحريم الخمر، فأقام عمر الحدَّ عليه، ولم يكفّره بإنكاره هذا الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، ولا عذره في تأوله إعذارًا مطلقًا؛ لكنه لم يطبّق عليه حكم بيان مجمع الفقه الإسلامي الدولي، فلم يحكم بردته، مع كونه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة!

ومن الصحابة من كان يُنكر قرآنية المعوذتين، وآخر منهم كان يضيف في القرآن دعاءين للنبي ﷺ، ويسمّيهما سورتي الحفد، والخلع، ولعلّها من منسوخ التلاوة.

ومن العلماء من أنكر بعض القراءات المتواترة.

ومع ذلك لم يكفرهم أحد بإنكار معلوم من الدين بالضرورة، خلافًا لإطلاق ذلك البيان المنتقَد.

إلى أن يقول:

وما استطال التكفيريون بشيءٍ أكثر من استطالتهم بمثل ذلك الإطلاق الذي جاء في البيان، فكلّ طائفة تكفيرية تكفر غيرها بحجة أنهم أنكروا معلومًا من الدين بالضرورة، دون النظر في حال المنكِر، هل كان عالمًا بما أنكره، أم كان جاهلًا (جهلًا بسيطًا أو مركَّبًا)[١].

وكذلك قال المحقق الأردبيلي: الظاهر أنّ المراد بالضروري الذي يكفر منكره هو الذي ثبت عنده يقينًا كونه من الدين[٢].

وقال السيد اليزدي في العروة الوثقى: والمراد بالكافر من كان منكرًا للإلوهية... أو ضروريًا من ضروريات الدين مع الالتفات إلى كونه ضروريًّا[٣].

التكفير المتبادل بين المذاهب

إنّ القول بتكفير منكر الضرورة، هيأ الأرضية للتكفير المتبادل بين أتباع المذاهب الإسلامية، حيث يرى كلّ مذهب أنّ معتقداته من ضروريات الدين، فيكفر من لم يؤمن بها من أتباع المذاهب الأخرى.

---

(١) نشر المقال بعنوان: (التكفير بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة ٢) في صحيفة المدينة، الجمعة ١٣/ ١٢ / ٢٠١٣م.

(٢) المولى أحمد المقدس الأردبيلي. مجمع الفائدة والبرهان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ج٣، ص ١٩٩.

(٣) السيّد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي. العروة الوثقى، فصل (النجاسات)، باب (الكافر)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (قم: مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني)، ج١، ص٦٠.

حيث رأى بعض علماء الشيعة كفر من أنكر ولاية أهل البيت؛ لأنها من ضروري الدين، لكن جمهور علماء الشيعة لا يرون ذلك.

يقول السيد الخوئي: لأنّ الضروري من الولاية إنما هي الولاية بمعنى الحبّ والولاء، وهم (عامة المسلمين) غير منكرين لها ـ بهذا المعنى ـ بل قد يظهرون حبّهم لأهل البيت عليهم السلام. وأما الولاية بمعنى الخلافة فهي ليست بضرورية بوجه، وإنما هي مسألة نظرية، وقد فسّروها بمعنى الحبّ والولاء، ولو تقليدًا لآبائهم وعلمائهم، وإنكارهم للولاية بمعنى الخلافة مستند إلى الشبهة كما عرفت، وقد أسلفنا أنّ إنكار الضروري إنما يستتبع الكفر والنجاسة فيما إذا كان مستلزمًا لتكذيب النبي صلى الله عليه وآله كما إذا كان عالمًا بأنّ ما ينكره مما ثبت من الدين بالضرورة، وهذا لم يتحقق في حقّ أهل الخلاف؛ لعدم ثبوت الخلافة عندهم بالضرورة لأهل البيت عليهم السلام نعم الولاية ـ بمعنى الخلافة ـ من ضروريات المذهب لا من ضروريات الدين[1].

وفي المقابل ذهب بعض علماء السنة إلى تكفير من سبَّ الشيخين، لكن جمهور فقهائهم ذهب إلى عدم تكفيره، وتوقف الإمام أحمد في كفره وقتله، وقال: يعاقب ويجلد ويحبس حتى يموت أو يرجع عن ذلك[2].

واتفقوا على أنّ من قذف السيدة عائشة بما برأها الله منه، أو أنكر

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. التنقيح في شرح العروة الوثقى، الطبعة الرابعة١٤١٧هـ، (إيران: مؤسسة انصاريان للطباعة)، ج٢، ص٨٦.

(٢) الموسوعة الفقهية. ج١٣، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، لفظ (تكفير)، ص٢٣٢.

صحبة الصديق كفر؛ لأنه مكذّب لنص الكتاب.

وأما من كفر بعض الصحابة دون بعض، فذهب الحنفية والمالكية في المعتمد عندهم، والإمام أحمد في إحدى الروايتين إلى عدم كفره، وذهب الشافعية والحنابلة في الرواية المشهورة إلى تكفير من كفر بعض الصحابة، وتطبق عليه أحكام المرتد.

وذهب المالكية إلى تكفير من تزيّا بزيّ الكفر من لبس غيار، وشد زنار، وتعليق صليب، وقيده المالكية والحنابلة بما إذا فعله حبًّا فيه وميلًا لأهله، وأما إن لبسه لعبًا فحرام وليس بكفر[1].

٤ / جماعات الإسلام السياسي

في أعقاب سقوط الخلافة العثمانية مطلع القرن العشرين، والانبهار الذي ساد أوساط الأمة بالحضارة الغربية المادية، وانتشار تيارات وقيام سلطات مناوئة للحالة الدينية في بلاد المسلمين، تكونت جماعات وأحزاب تدعو للالتزام بالإسلام وإقامته وتطبيقه، في مقابل التيار الانهزامي والتيار المناوئ للدين، ولقيت تجاوبًا من مجاميع من أبناء الأمة الغيارى على دينهم وأصالتهم، وكانت في البداية نشاطا دعويًّا ثقافيًّا اجتماعيًّا، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى النشاط السياسي، ومقاومة السلطات التي واجهتها بالقمع الشديد، كما حصل في مصر في عهد جمال عبدالناصر، وهناك نقاش وخلاف حول من بدأ بالعنف.

---

(١) المصدر السابق. ج١٣، ص٢٣٣.

من وحي هذه المواجهة انبعث تيار التكفير الجديد لتكفير الحكومات، حيث إنّها تمنع الدعوة إلى الله ونشر الدين، ثم تكفير الأجهزة التابعة لها، وخصوصًا الأجهزة الأمنية، وقد ألّف (فارس آل شويل ـ سعودي) كتابًا بعنوان (الباحث عن حكم قتل أفراد وضباط المباحث)[١]، وهي رسالة في تأصيل جواز قتل أفراد المباحث السعودية، وقد صدر بعد المواجهات بين جماعات القاعدة والسلطات السعودية، عقب حادثة مواجهة استراحة حي الشفا جنوب غربي الرياض صباح ١٦ نوفمبر ٢٠٠٢م.

ثم تطور الأمر إلى تكفير المجتمعات الخاضعة لهذه الحكومات، وبعضها اتخذ التكفير عنوانًا لها، مثل جماعة التكفير والهجرة في مصر[٢]، ولهذه الجماعات كتابات وأدبيات منتشرة.

وتطورت الأمور إلى ظهور جماعات عديدة في هذا الزمان كـ (القاعدة) و(داعش) و (بوكو حرام) و(أنصار الشريعة) و (الشباب المسلم في الصومال) غيرها.

---

(١) فارس أحمد جمعان آل شويل الزهراني الملقب بـ (أبو جندل الأزدي)، ألقي القبض عليه في أغسطس ٢٠٠٤م، وأعدم في ٢ يناير عام ٢٠١٦م.

(٢) جماعة ظهرت في مصر عام ١٩٧١م وأطلقت على نفسها اسم جماعة المسلمين، وتولى قيادتها وصياغة أفكارها ومبادئها رجل يدعى شكري مصطفى، كان طالبًا في كلية الزراعة، واعتقل في عام ١٩٦٥م. وأدخل السجن بتهمة انتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين، وفي السجن تولدت أفكاره ونمت، واعتبر نفسه مصلحًا عظيمًا، وبايعه أتباعه أميرًا للمؤمنين وقائدًا لجماعة المسلمين، وانتهى الأمر به إلى أن أُعدم هو وزملاؤه من قادة الجماعة في عام ١٩٧٨م.

بعد هذه المآسي والفظائع التي عاشتها الأمة بسبب هذه التوجهات التكفيرية، أما آن للأمة أن تضع حدًّا لهذه الحالة المأساوية؟!!

إنّ الله سبحانه وتعالى ينهى عن تكفير من أعلن إسلامه، يقول تعالى بنص صريح: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ ويُرجع سبحانه الدافع إلى هذا المنزلق الخطر بأنه طلب المصلحة والاغراض الدنيوية ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كما حذّر رسول الله ﷺ من التسرّع في تكفير الآخرين، فقال ﷺ فيما روي عنه: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»[1].

وعنه ﷺ: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»[2].

(١) صحيح البخاري. كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، حديث ٥٧٧٤.
(٢) صحيح مسلم. كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، حديث ٩٦.

وقد ضرب الإمام علي عليه السلام أروع الأمثلة في تجنب تكفير أحد من أهل القبلة، حيث لم يسمح بتكفير من كفره، أو حاربه، كما نقل ذلك حفيده الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في قوله: أَنَّ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَنْسُبُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ حَرْبِهِ إِلَى الشِّرْكِ وَلَا إِلَى النِّفَاقِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «هُمْ إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا»[1].

وسُئِلَ عَلِيٌّ عليه السلام عَنْ قَتْلَى الْجَمَلِ، أَ مُشْرِكُونَ هُمْ؟ قَالَ: «لَا بَلْ مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا» قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ؟ قَالَ: «لَا، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: «إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا فَنُصِرْنَا عَلَيْهِمْ»[2].

ونقل الشيخ عبد الوهاب الشعراني من علماء القرن العاشر في كتاب (الطبقات الكبرى) ج١، ص١٣: عن الإمام تقيِّ الدين السُّبكي من أئمة القرن الثامن، فقد سُئِل عن حكم تكفير المبتدعة وأهل الأهواء فقال: اعلم أيّها السائل، أنّ كلّ من خاف الله عزّ وجلّ استعظم القولَ بالتكفير لمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذ التكفير هائل عظيمُ الخطر؛ لأنّ من كفّر شخصًا بعينه فكأنما أخبر أنّ مصيره في الآخرة جهنمُ خالدًا فيها أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، لا يُمكَّن من نكاح مسلمة ولا تجري عليه أحكام المسلمين، لا في حياته

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (قم: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث)، ص ٦٢، الباب ٢٦ من أبواب جهاد العدو، الحديث ١٠.

(٢) القاضي النعمان بن محمد التميمي المغربي. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ج١، ص ٣٩٩، حديث ٣٤٤، و محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تفسير القرطبي، تحقيق: سالم مصطفى البدري، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج١٦، ص٣٢٤.

ولا بعـد مماتـه، والخطأ في ترك ألـف كافر أهونُ من الخطأ في سـفك مِحْجَمَة من دم امرئ مسلم، وفي الحديث: «لأَنْ يُخطئ الإمام في العفو أحب إليّ من أن يخطئ في العقوبة»[١].

وبعـد هذه القرون الطويلة التي اشـتغلت فيهـا الأمة بعضها ببعض ضمـن جدل عقيم، أبعدها عن الحضـارة وتطوير الحياة، وأوصلها إلى هذه الحالة المتردية من الاحتراب وسـفك الدماء وسوء السمعة، أما آن أن نضع حدًّا لهذا المسار؟

ومن المؤسـف جـدًّا أن تعيش الأمة في هذا العصـر في ظلّ موجة عارمة من توجهات التكفير مزقت مجتمعات الأمة، وأسالت دماء أبنائها أنهـارًا، واسـتباحت كلّ المحارم، وانتهكـت كلّ المبـادئ والأعراف، وشوّهت سمعة الإسلام والمسلمين في العالم.

وفي مواجهة هذا الواقع الأليم لا بُدّ من إعادة النظر في فهمنا للدين، عبر المجالات التالية:

١. إعادة النظر في التراث ومراجعته

مع ما يحمل تراثنا الديني من كنوز عظيمة يمكن أن نقدمها للعالم، إلّا أنّ المنطـق العلمـي يوجب علينـا أن ننقيه مما شـابه والتصق به من نقولات وأفكار يأباها العقل والدين.

إنّ ما لدى المسـلمين اليوم من كتـب عقائدية وحديثية تحتاج إلى

(١) الدكتـور عمر عبدالله كامـل. التحذير من المجازفة بالتكفيـر، الطبعة الأولى٢٠٠٣م، (بيروت: دار بيسان للنشر)، ص١٥.

غربلة وتنقية، فبقاؤها دون مراجعة يشبه فتح مخازن الأدوية والسموم أمام الأطفال الذين لا يفرّقون بين النافع والضار.

ونشير هنا إلى جانب الممانعة التي تواجهها جهود التنقية والغربلة، فكلّ من يسعى لتنقية التراث يتهم بشتّى التهم.

٢. إعادة النظر في مناهج التعليم الدينية في المدارس والمعاهد والحوزات.

حيث لا تزال حوزاتنا ومعاهدنا وجامعاتنا الإسلامية، بل وحتى المدارس الابتدائية، تدرس كتبًا في الفقه والعقيدة، ألفت منذ قرون، وهي تحمل بذور التكفير والتطرف، وتربي النشء والمجتمع على التشدد!!

٣. الخطاب الديني

لا بُدّ من إعادة النظر في الخطاب الديني، الذي يتهم الناس في أديانهم، ويصفهم بالكفر والشرك والابتداع، لاتّباعهم مذاهب مختلفة أو لأنهم لا يؤمنون بولاية الائمة، أو لأنهم يزورون القبور، أو يحتفلون بالمولد النبوي الشريف، أو يحيون مناسبات أهل البيت عليهم السلام.

وبعض أئمة صلاة الجماعة يدعون في قنوتهم على المسلمين المخالفين لهم في بعض الآراء والمعتقدات، يدعون عليهم بالهلاك واللعن والخزي، كما تتوالى فتاوى التكفير والتضليل في الساحة الإسلامية.

ومن الطبيعي أن تخلق هذه الأجواء بيئة ومناخًا لإنتاج وتفريخ حركات التكفير والإرهاب والعنف.

احتكار الجنة

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[سورة البقرة، الآيتان: ١١١-١١٢].

نعم الله في الدنيا لكل البشر

حين نقرأ القرآن الكريم، نجد عددًا من آياته تتحدث عن تسخير الكون للإنسان، وأنّ الله تعالى جعل كلّ إمكانات الطبيعة تحت تصرفه، وأفاض عليه ألوان النعم.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [سورة إبراهيم، الآيات: ٣٢-٣٤].

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان، الآية: ٢٠].

والخطاب لكلّ البشر، فنعم الله شاملة ومتاحة لهم جميعًا، على اختلاف أعراقهم وأديانهم، فهو سبحانه لم يخصص نعمه وخيراته في

هـذه الحياة للمؤمنين به فقـط، ولا للمطيعين له وحدهم، بل نصّ على شمولها للجميع.

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآيات: ١٨-٢٠].

وإذا نظرنا إلى واقع الحياة في الماضي والحاضر، وجدنا أنّ كلّ البشر على اختلاف أديانهم، مؤمنين وكافرين، مطيعين وعاصين، يتمتعون بنعم الله تعالى.

بل قد نرى أنّ الكافرين والعصاة يأخذون نصيبًا أكبر من نعم الحياة، حينما يبذلون جهدًا أكبر طبقًا للقانون الإلهي: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾.

لو نظرنا إلى شعوب العالم اليوم من مختلف الأديان، (مسيحيين وهندوس وبوذيين ويهود ومسلمين)، نرى أنّ الجميع في هذه الحياة يرفلون في نعم الله سبحانه وتعالى، لكنهم متفاوتون حسب جهد كلٍّ منهم، ويمكن أن نلحظ هذا التفاوت في النماذج التالية:

متوسط عمر الإنسان

الله سبحانه وتعالى جعل قانون الأسباب والمسببات حاكمًا على

الكون والحياة، ومن ذلك صحة الإنسان ومدة بقائه في الحياة، يسري ذلك على المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، صحيح أنّ الطاعة من أسباب طول العمر، لكنها مجرد مقتضي.

فقد نشرت إحصاءات عن متوسط عمر الإنسان، تظهر مدى تأثير الظروف الطبيعية، كالاهتمام بالصحة والغذاء، وآثار الحروب، ومنها على سبيل المثال:

- هونج كونغ ٨٤ عامًا.
- اليابان ٦ , ٨٣ عامًا.
- أفغانستان ٤٩ عامًا.
- تشاد ٤٨ عامًا.

إذًا تفاوت الأعمار ومدة عيش الإنسان في هذه الحياة ليس مرتبطًا من حيث الأصل بإيمان الإنسان أو كفره، وطاعته أو عصيانه.

متوسط دخل الفرد

حسب إحصاءات سنة ٢٠١٦م، يبلغ دخل الفرد في إسرائيل ٤٠ , ٠٠٠ دولار، بينما في مصر وهي دولة إسلامية لا يتجاوز ٣٤٠٠ دولار، ويستهدفون رفعه إلى ١٠ آلاف دولار بحلول سنة ٢٠٣٠.

جائزة نوبل

تمثل جائزة نوبل مثلًا صارخًا على هذه الحقيقة، بما تعبّر عن

مستوى متقدم للعلم والمعرفة، فهي تقدم للمتميزين من العلماء والمفكرين والأدباء، وأصحاب الأدوار المؤثرة في المجتمع الإنساني، وحسب التقارير الصادرة عن الجائزة: أنها طوال ١٠٤ سنوات الماضية من عمرها، حصد منها الأمريكيون ٣٥٣ جائزة، والبريطانيون ١٢٥ جائزة، والروس ٢٣ جائزة، وإسرائيل ١٢ جائزة، والهند ١٠ جوائز، أما العالم العربي بدوله التي تبلغ ٢٢ دولة، وكثافته السكانية التي تبلغ ٣٩٢ مليون نسمة، فلم يحصد إلّا ٩ جوائز، أي أقل مما حازته إسرائيل.

تقرير السعادة العالمي

أطلقت الأمم المتحدة هذا العام النسخة الخامسة من تقرير السعادة العالمي ٢٠١٧، الذي تضمن استبيانًا لمستويات السعادة في ١٥٥ دولة، بالتزامن مع يوم السعادة العالمي.

وبني التقرير على ستة عوامل تتضمن الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد، ومتوقع سنوات الحياة الصحية، والدعم الاجتماعي.

ويتضح من التقارير أنّ أعلى ١٠ دول في المؤشر بالترتيب: النرويج، الدنمارك، أيسلندا، سويسرا، فنلندا، هولندا، كندا، نيوزيلندا، أستراليا، السويد. بينما جاءت أول دولة إسلامية في المركز ٢١ هي (الإمارات العربية المتحدة).

فالنعم والخيرات في هذه الحياة مبذولة لكلّ بني البشر، لكن ذلك يحتاج إلى بذل الجهد والسعي والتحرك.

وماذا عن نعيم الجنة؟

رأينا في الحياة الدنيا كيف تغمر نعم الله تعالى كلّ الخلق مؤمنهم وكافرهم، من أطاع الله ومن عصاه، هذا في الدنيا، لكننا نؤمن بأنّ هناك دارًا آخرة بعد الدنيا، وهي دار الخلود، وفيها نعيم وجحيم، فكيف سيتعامل الله مع عباده يوم القيامة؟

إنّ الله تعالى أراد من عباده أن يؤمنوا به، وأن يعبدوه في الدنيا، وأراد منهم أن يجتنبوا الظلم والفساد، عبر ما أودع في نفوسهم من فطرة ووجدان، ومنحهم من عقل وتفكير.

كما بعث لهم أنبياء ورسلًا، وأنزل لهم شرائع ورسالاتٍ، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ومنهم من أطاع، ومنهم من عصى.

ومما اتفقت عليه الديانات السماوية أنّ الله تعالى قد وعد المؤمنين والمطيعين الجنة والثواب، وتوعّد الكافرين والعاصين بالنار والعذاب، وواقع حياة البشر يظهر أنّ الأكثرية في الاتجاه الثاني، فهل

يعني ذلك أنّ أكثرية البشر في جهنم، وأنّ الناجين هم المطيعون من المسلمين فقط؟!

إن تعداد البشر يبلغ ـ حاليًّا ـ ٧,٦ مليار، والمسلمون منهم يقدرون بـ ١,٦ مليار، وفي المسلمين كثير من العاصين، وهذا يعني أنّ أكثر من ٩٠٪ من البشر مصيرهم إلى جهنم!!

فهل الأمر كذلك؟!!

يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي أنه تعالى خلق الناس ليرحمهم، ونحن نعتقد أنّ الله عادل وحكيم ورحيم بعباده، ومقتضى عدله وحكمته ألّا يعاقب إلّا من ثبتت عليه الحجة لـ (قبح العقاب بلا بيان).

وهي قاعدة عقلائية جرى عليها البشر في سيرتهم التشريعية، فلا يعاقبون دون نصّ، فلا حساب ولا ترتيب للآثار على القوانين، إلّا بعد إقراراها، وإصدارها، ونشرها في الجريدة الرسمية، وإبلاغ المواطنين بها عبر وسائل الإعلام.

وقد جرى علم أصول الفقه على اعتبار هذه القاعدة مرجعًا أساسيًّا عند فقد النص، أو الشك في التكليف، فإذا لم نجد نصًّا يبين حكم شيء من الأشياء، من حيث الحرمة أو الوجوب، نحكم بإباحته، ونطمئن بأننا غير مؤاخذين على فعله من قبل الله تعالى، حتى لو كان حكمه الواقعي حرمة ذلك الشيء أو وجوبه، حيث لم يصل إلينا بيان من قبل الشارع،

ولا يمكن أن يعاقبنا الله على شيء لم يبيّنه لنا.

إنّ العقاب الأخروي مشروط بإقامة الحجة، وهو فرع من مبدأ العدل الإلهي؛ لأنّ كلًّا من الوجدان والبرهان والقرآن حاكم بها.

أما الوجدان، فباعتبار أنّ الإنسان بفطرته السليمة يرفض معاقبة من لم تقم عليه الحجة.

وأما البرهان، فلأنّ مما يستقل به العقل هو الحكم بقبح مؤاخذة الذي لم تصله الحجة.

وأما القرآن فيؤكد في أكثر من آية على القاعدة المذكورة، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وبالتأمل في هذه الآية نجد أنها تمثل إرشادًا إلى حكم العقل، كما ينبئ به التعبير بجملة (ما كنا)، فإنها توحي بعدم تناسب العذاب مع مكانته ومقامه عزّ شأنه.

وفي آية أخرى يخبرنا تعالى أنّ الحجة تدور مدار إرسال الرسل، فإذا أرسل الله المرسلين والنبيين كان له الحجة على الناس، وإلّا كان لهم الحجة عليه، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾»[1].

وإلى جانب الرسل والأنبياء، فإنّ الله تعالى يحتج على الناس

(١) الشيخ حسين أحمد الخشن. هل الجنة للمسلمين وحدهم؟ (قراءة في مفهوم الخلاص الأخروي)، الطبعة الأولى ١٤٣٢، (بيروت: المركز الإسلامي الثقافي)، ص٣٢.

بمـا منحهم من عقول يدركون بها الخير من الشـر، كما ورد عن الإمام الكاظـم عليه السلام: إنّ لله علـى الناس حجتين: حجة ظاهـرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول[1].

ولكـن هل الحجة بالإسـلام قائمة الآن على شـعوب العالم حتى يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة على عدم دخولهم في الإسلام؟

هـل وصل فكـر الإسـلام ودعوتـه إلى جميـع الشـعوب بلغاتهم وبالطريقة المناسبة لإقناعهم؟

وهل أنّ واقع المسـلمين بما فيه من تخلف وتمزّق وفساد، يشكل أنموذجًا يدفع سـائر الأمـم للبحث عن دين الإسـلام؟ أم أنّ الواقع قد يكون له أثر عكسي في التنفير من الإسلام والابتعاد عنه؟

من كل ذلك يمكن القول إنّ معظم البشر الآن قاصرون عن إدراك أحقية الإسـلام، وقد يكـون هناك مقصّرون لكنها نسـبة ضئيلة من بني البشر، أما الأكثرية فهم قاصرون، فلا يستحقون العقاب.

يقول الإمام الخميني: (أكثرهم ـ أي الكفار ـ إلّا ما قلّ وندر جهّال قاصـرون لا مقصّـرون. أمـا عوامهـم فظاهـر؛ لعدم انقـداح خلاف ما هـم عليه من المذاهب فـي أذهانهم، بل هم قاطعـون بصحة مذهبهم، وبطلان ساير المذاهب، نظير عوام المسلمين، فكما أنّ عوامنا عالمون بصحـة مذهبهم، وبطلان سـاير المذاهب، من غير انقـداح خلاف في

(١) الكافي. ج١، ص١٦.

أذهانهم، لأجل التلقين والنشو في محيط الإسلام، كذلك عوامهم من غير فرق بينهما من هذه الجهة، والقاطع معذور في متابعة قطعه، ولا يكون عاصيًا وآثمًا، ولا تصح عقوبته في متابعته.

وأما غير عوامهم فالغالب فيهم أنه بواسطة التلقينات من أول الطفولة، والنشو في محيط الكفر، صاروا جازمين ومعتقدين بمذاهبهم الباطلة، بحيث كلّ ما ورد على خلافها ردوها بعقولهم المجبولة على خلاف الحقّ من بدو نشوهم، فالعالم اليهودي والنصراني كالعالم المسلم، لا يرى حجة الغير صحيحة، وصار بطلانها كالضروري له؛ لكون صحة مذهبه ضرورية لديه لا يحتمل خلافه، نعم فيهم من يكون مقصّرًا لو احتمل خلاف مذهبه، وترك النظر إلى حجته عنادًا أو تعصّبًا)[1].

كما وردت الإشارة إلى هذه الفكرة في تقرير لبحث المرجع الراحل السيد الخوئي جاء فيه ما يلي:

قد أُعتبر في الشريعة المقدسة أمور على وجه الموضوعية في تحقق الإسلام، بمعنى أنّ إنكارها أو الجهل بها يقتضي الحكم بكفر جاهلها، أو منكرها، وإن لم يستحق بذلك العقاب؛ لاستناد جهله إلى قصوره وكونه من المستضعفين[2].

(١) روح الله الموسوي الخميني. المكاسب المحرمة، ج١، الطبعة: الثالثة ١٤١٠هـ، (قم: مؤسسة اسماعيليان)، ص١٣٣-١٣٤.
(٢) التنقيح في شرح العروة الوثقى. كتاب الطهارة، ج٢، ص٥٨.

ومفـاد هذا الـكلام أن الكافر الجاهل بسـبب قصوره عن الوصول إلى المعرفة لا يستحق العقاب.

وفـي هذا السـياق يمكن فهـم كلام بعـض الأعلام عـن أنّ معظم المسـيحيين معـذورون ومخلصون، يقول الشـهيد مطهـري: رغم أننا نعتقد بطروء التحريف عليها ـ المسيحية ـ لو تنظرون إلى المدن والقرى والرهبان ورجال الدين فيها، فهل إنّ كلّ راهبٍ فاسدٌ وإنسانٌ سيّئ؟!

والله إنَّ بينهم نسـبة السبعين إلى الثّمانين في المئة منهم أشخاص أتقيـاء يملكـون حسًّـا إيمانيًّا وإخلاصًـا، وكم علّمـوا النّـاس التّقوى، ونشـروا الصّـلاح والإخـلاص والطّهـارة باسـم المسـيح ومريم، ولا ذنب لهؤلاء النّاس، وسـوف يدخلون الجنّة، وأسـاقفتهم كذلك أيضًا، إذًا لا بُدّ من التمييز بين رجال الدين الفاسـدين وبين أكثرية المبشّـرين المخلصين من أتباع المسيح[1].

سعة رحمة الله:

إننـا نعتقـد بسـعة رحمة اللـه تعالى، وهـذا ما تؤكد عليه عشـرات أو مئـات الآيـات والأحاديث، وأحد تلـك الأحاديث يشـير إلى أنّ ما نـراه في الدنيا مـن مظاهر رحمته الغامـرة، ما هو إلّا بمقـدار واحد في المئـة من مظاهر رحمته تعالى فـي الآخرة، يقول الحديث المروي عن

(١) الشـيخ حسـين أحمد الخشـن. أصـول الاجتهـاد الكلامـي، الطبعة الأولـى ٢٠١٥م (بيـروت: المركز الاسـلامي الثقافـي)، ص١٨٦. نقلًا عن الشـهيد مطهري مجموعة الآثار، (الحقّ والباطل)، ج٣، ص٤٣٩.

رسـول الله ﷺ ـ كما في صحيح مسـلم ـ: «إِنَّ لِله مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَـةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِـمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُـونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللهُ تِسْـعًا وَتِسْـعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

وقيل للإمام عليّ بن الحسـين عليه السلام: إنّ الحسـن البصريّ قال: ليس العَجَـب ممّـن هلك كيـف هلك، وإنّمـا العجب ممّن نجـا كيف نجا! فقـال عليه السلام: «أنا أقـول: ليس العجَبُ ممّن نجا كيف نجـا، وإنّما العجَبُ ممّن هلك كيف هلك مع سَعةِ رحمة الله!!»[٢].

فهل ينسجم ذلك مع القول بأنّ أكثر من تسعين في المئة من البشر سيدخلون نار جهنم، عقوبة لهم على عدم إيمانهم بدين لم يعرفوا عنه، ولا أمكنهم الاقتناع به؟

إنّ الله سـبحانه وتعالى يخاطب عباده عامة وليس المؤمنين فقط، مطمئنًـا لهم بسـعة رحمته، وداعيًا لهـم إلى الثقة بعفـوه وفضله، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللـه إِنَّ اللـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[سـورة الزمر، الآية:٥٣].

ويقول تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

(١) صحيـح مسـلم. ص١٤٧٢، حديث١٩ وقريـب منـه في روضـة المتقيـن، محمد تقي المجلسي، ج٢، ص٣١٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص ١٥٣، حديث١٧.

الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[سورة الحجر، الآيتان: ٤٩-٥٠].

وقد لاحظ العلماء أنّ الله تعالى نسب صفة الرحمة إلى نفسه، وصفة العذاب إلى فعله، مما يدلّ على أنّ الأصل والمدار هي الرحمة.

ويقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٦].

إنّ كلّ ذلك يدفعنا للقول بأنّ معظم البشر لن يكونوا بعيدين عن رحمة الله وعفوه في الآخرة، كما تغمرهم نعمه في الدنيا، وإن كانوا كافرين أو عاصين، إلا من كان جاحدًا معاندًا مصرًّا على الضلال والظلم والفساد.

دعاوى احتكار الجنة ومفاعيلها

أتبـاع كلّ ديانـة ومذهب يرون أنهم على الحقّ، وأنهم مسـتحقون للجنـة لاتباعهم الحـقّ، وأنّ غيرهم على باطل، إلى هنا والأمر مقبول، لكن المشكلة حين يدعون احتكار الجنة لأنفسهم، وأنّ الآخرين ممن يخالفونهـم في الدين، أو في المذهب، أو حتى من داخل المذهب هم جميعًا في النار!!

ينقل عن أحد الدعاة المسـيحيين في القرن الثالث عشـر قوله: «إنّ نسبة الناجين يوم القيامة لا تتجاوز الواحد من كلّ مئة ألف شخص! أي عشرة على مليون! وأمّا البقية فمصيرهم إلى النار وبئس المصير»[1].

وأحد علماء الشيعة يرى أنّ الذين ضحوا بأنفسهم واستشهدوا في قتالهم مع الإمام علي في حروبه الجمل وصفين والنهروان، لا يدخلون جميعهـم إلى الجنة، إلا مـن كان منهم يوالي الإمـام عليًا وفق المعتقد

(١) هل الجنة للمسلمين وحدهم؟، ص١٠.

الشيعي، قال: «وعلى هذا فالمقتولون في حروبه الثلاثة إن كانت بيعتهم على بيعة الغدير فهم الشهداء السّعداء، وإن كانت على بيعة مَنْ قبله فالأظهر عندي أنّهم ليسوا بناجين، كما نطقت به الأخبار أنّ من عمل منهم ولم يكن بدلالة وليّ الله فهو باطل...»[1]. ويقصد بذلك أنّ من كان يعتقد أنّ عليًّا منصوب من قبل الله، وبتعيين من رسول الله ﷺ، يوم غدير خم، وقاتل مع علي وقتل فهو شهيد يستحقّ الجنة، أما من كان يتعامل مع الإمام علي مجرد خليفة كمن سبقه من الخلفاء، حتى ولو قاتل وقتل تحت رايته، فهو لا يستحق وصف الشهادة، ولا ينجو من النار، فضلًا عن أن يكون من أهل الجنة.

ويبدو أنّ القرآن الكريم حينما يردّ ادّعاء اليهود والنصارى، باحتكار كلّ طائفة منهم للجنة، إنما يريد الإنكار على هذا النمط من التفكير والادّعاء، الذي تبتلى به مختلف الطوائف من مختلف الديانات، لذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فمقياس دخول الجنة والأمن من العذاب هو إسلام الوجه لله، أي إخلاص القصد والتوجه إلى الله أولًا، ثم الإحسان في العمل ثانيًا، وليس مجرد الانتماء الاسمي والاجتماعي لهذا الدين أو ذاك.

---

(١) الشيخ فضل علي القزويني (ت١٣٦٧هـ). الإمام الحسين وأصحابه، تحقيق السيد أحمد الحسيني، ج١، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، قم ـ إيران، ص٣٣.

حديث الفرقة الناجية

ومما عـزّز دعوى احتـكار الجنة يبن الطوائف الإسـلامية حديث الفرقة الناجية، حيث ترى كلّ فرقة أنها تمتلك مفاتيح الجنة، وأنّ الجنة لهـا حصرًا، أمـا بقية الطوائف والفرق الإسـلامية فمصيرهـا إلى النار، فضلًا عن باقي أمم الأرض.

هذا الحديث الذي ورد في مصادر حديثية متعددة لمختلف الفرق والمذاهب الإسلامية، من السنة والشيعة والإباضية.

وقد تعددت طرقه وتنوعت ألفاظه وألسنته، ومن صيغه المشهورة أنه قال ﷺ: «إنَّ أُمَّتي سَتَفَرَّقُ بَعدي عَلى ثَلاثٍ وسَبعينَ فِرقَةً ؛ فِرقَةٌ مِنها ناجِيَةٌ وَاثنَتانِ وسَبعونَ فِي النّارِ»[1].

وصحـح بعض رواياته جماعة من المحدثين من السـنة والشـيعة، مع اختلاف صيغ رواية الحديث، وبعض صيغه لم تشـتمل على عبارة (كلّها في النار إلّا واحدة).

وقد واجهت أسانيد الحديث نقود كثيرة من عدد من العلماء، حتى قال بعضهم: أنه لا يصح من جهة الإسناد أصلًا؛ لأنه ما من إسناد روي به إلّا وفيه ضعيف، وكلّ حديث هذا شأنه لا يجوز الاستدلال به، ومن

(١) الشـيخ الصدوق. الخصال، ص ٥٨٥، ومثله في سنن الترمذي، كتاب الإيمان، ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث ٢٦٤٠.

القائلين بذلك ابن حزم الأندلسي[١].

وقال الشيخ السبحاني بعد بحثه حول هذا الحديث: (إنّ مشكلة اختلاف نصوص الحديث، لا يقلّ إعضالًا عن مشكلة سنده، فقد تطرق إليه الاختلاف من جهات شتى، لا يمكن معه الاعتماد على واحد منها)[٢].

كما رجح شيخ الأزهر الأسبق الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود إحدى صيغ رواية الحديث، وأبدى ابتهاجه بها قال: (ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدر أنّ الشعراني في ميزانه قد روى من حديث ابن النجار، وصححه الحاكم بلفظ «غريب» وهو: ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة، كلّها في الجنة إلّا واحدة)[٣].

وفي هذا السياق يقول الشيخ محمد جواد مغنية: (اشتهر عن النبي ﷺ أنه قال: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة. وقد كثر الكلام وطال حول هذا الحديث، فمن قائل: إنه ضعيف لا يعوّل عليه. وقائل: إنه خبر واحد، وهو ليس بحجة في

(١) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري. الفصل في الملل والأهواء والنحل، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ج٢، ص٢٤٨.
(٢) الشيخ جعفر السبحاني. بحوث في الملل والنحل، ج١، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، (بيروت: الدار الإسلامية)، ص٤١.
(٣) عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي الإسلامي، ١٩٨٢م، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، ص١٠٠.

الموضوعات. وقال ثالث: إنّ «كلّها في النار» من دسائس الملاحدة للتشنيع على المسلمين. ورواه رابع بلفظ «كلّها في الجنة إلّا الزنادقة». ونحن على شك من هذا الحديث؛ لأنّ الأصل عدم الأخذ بما ينسب إلى الرسول ﷺ حتى يثبت العكس .. ولكن إذا خيّرنا بين: كلّها في النار، وبين: كلّها في الجنة، نختار الجنة على النار .. أولًا أنها أقرب إلى رحمة الله. ثانيًا إنّ الفرق الإسلامية على أساس الاختلاف في الأصول لا تبلغ ٧٣، والاختلاف في الفروع لا يستدعي الدخول في النار؛ لأنّ الخطأ فيها مغتفر إذا حصل مع التحفظ، وبعد الجد والاجتهاد.. وما أبعد ما بين هذا الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ وقول ابن عربي في كتاب الفتوحات: لا يعذّب أحد من أمة محمد ﷺ ببركة أهل البيت)[1].

إنّ حديث الفرقة الناجية أصبح شعارًا للتوجهات الطائفية البغيضة، وعنوانًا للحضّ على الكراهية والتفرقة بين المسلمين، ولا ينبغي للعلماء أن يتسامحوا أو يسكتوا على انتشار مثل هذه النصوص دون دراسة وتمحيص، ودون عرضها على القيم الأساس في الدين، والمبادئ والمفاهيم الثابتة، ودون أخذ تداعياتها ونتائجها على واقع الأمة بعين الاعتبار.

المفاعيل والتداعيات:

إنّ دعوى احتكار الجنة داخل كلّ مذهب وفرقة، ليس مجرد

(١) محمد جواد مغنية. التفسير الكاشف، ج٢، الطبعة الأولى ١٩٦٨، (بيروت: دار العلم للملايين)، ص٣٠.

نظرية لا أثر لها ولا انعكاس على الواقع الاجتماعي، بل إنّ لها مفاعيل وتداعيات خطيرة، من أهمها أمران:

أولًا: التمحور حول عنوان الانتماء على حساب مضمون العمل والالتزام، حيث يتضخم في نفس السني والشيعي، أنّ حمله لهوية مذهبه هي بطاقة دخوله إلى الجنة، دون اهتمام بمستوى التزامه بالمبادئ والقيم في التطبيق والسلوك، فيعيش وهم النجاة، وأمنية الخلاص، دون أن يوفّر في نفسه مؤهلات ومقومات النجاة.

وهذا ما أثارته الآيات الكريمة في الرّد على دعوى احتكار الجنة، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ لتأتي الآية الأخرى بعدها مؤكدة على أنّ الخلاص والنجاة يتوقف على التوجه إلى الله والإحسان في العمل ﴿بلى من أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وليس على حمل بطاقة هوية وعنوان انتماء فقط.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[سورة النساء، الآيتان: ١٢٣-١٢٤].

فبطاقة الهوية الدينية لا تمنح الإنسان الحصانة، إذا سلك طريق الظلم والفساد والانحراف، والنجاة هي بالإيمان والعمل الصالح،

فذلك ما يؤهل لدخول الجنة.

(بعبارة موجزة: الجنّة ومرضاة الله، والسعادة الخالدة، ليست حكرًا على طائفة معينة، بل هي نصيب كلّ من يتوفر فيه شرطان:

الأوّل: التسليم التامّ لله تعالى، والانصياع لأوامره سبحانه، وعدم التفريق بين هذه الأوامر، أي عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذي لا ينسجم مع المصالح الفردية الذاتية.

الثّاني: وهو ما يترتب على التسليم في المرحلة الأولى، من القيام بالأعمال الصالحة والإِحسان في جميع المجالات)[١].

وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يحذّرون شيعتهم من الاتكاء والاعتماد على عنوان الانتماء والولاية لهم، دون الالتزام بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته.

ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال لجابر: «يا جابِرُ، وَاللهِ ما يُتَقَرَّبُ إلَى اللهِ تَبارَكَ وتَعالى إلّا بِالطّاعَةِ، وما مَعَنا بَراءَةٌ مِنَ النّارِ ولا عَلَى اللهِ لِأَحَدٍ مِن حُجَّةٍ، مَن كانَ للهِ مُطيعًا فَهُوَ لَنا وَلِيٌّ، ومَن كانَ لله عاصِيًا فَهُوَ لَنا عَدُوٌّ، وما تُنالُ وَلايَتُنا إلّا بِالعَمَلِ وَالوَرَعِ»[٢].

وعنه عليه السلام: «لا تذهب بكم المذاهب، فوَالله ما شيعتنا إلّا من أطاع

---

(١) ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة البعثة)، ج١، ص٢٩٤-٢٩٥.
(٢) الكافي. ج٢، ص٧٤، حديث٣.

الله عزّ وجلّ»[١].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ليس من شيعتنا من قال بلسانه وخالفنا في أعمالنا وآثارنا»[٢].

ثانيًا: نزعة التعالي على الآخرين وازدراؤهم واحتقارهم، باعتبارهم من أهل النار، فالسني الذي يعتقد أنّ الشيعي من أهل النار، أو الشيعي الذي يعتقد أنّ السني من أهل النار، هل سيحبه أو يحترمه أو يثق به أو يحفظ له حقوقه؟!

ولعله بسبب ذلك نجد فتاوى ودعوات واضحة للقطيعة وزرع الكراهية والبغضاء، في أوساط الشيعة والسنة، تجاه بعضهم بعضًا.

وهنا تأتي أهمية التذكير بالروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تؤكد أنّ المخالفين لك في المذهب من المسلمين، سيشاركونك في دخول الجنة، وستشملهم رحمة الله تعالى، عدا من كان مبغضًا لأهل البيت، ومعاندًا وجاحدًا لحقّهم، بعد أن اتضح له الحقّ وثبتت عليه الحجة.

وفيما يلي نذكر نموذجاً من تلك الروايات:

١. عن ضريس الكناسي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك، ما حال الموحّدين المقرّين بنبوة محمد صلى الله عليه وآله من المسلمين

(١) الكافي. ج٢، ص٧٣، حديث١.
(٢) بحار الأنوار. ج ٦٥، ص١٦٤، حديث١٣.

المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام، ولا يعرفون ولايتكم؟ فقال: «أما هؤلاء فإنهم في حفرهم لا يخرجون منها، فمن كان له عمل صالح ولم يظهر منه عداوة فإنه يُخَدُّ له خَدًّا إلى الجنة»[١].

٢. عن محمد بن الفضيل الزرقي عن أبي عبد الله عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: «إنّ للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منه شيعتنا ومحبونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلّا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت»[٢].

٣. عن أبي خديجة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: «إلّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا» فقال: «لا يستطيعون حيلة إلى النصب فينصبون، ولا يهتدون سبيل أهل الحقّ فيدخلون فيه، وهؤلاء يدخلون الجنة بأعمال حسنة، وباجتناب المحارم التي نهى الله عزّ وجلّ عنها، ولا ينالون منازل الأبرار»[٣].

٤. عن زرارة، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام وأنا جالس عن قول الله: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» يجري لهؤلاء ممن لا يعرف

(١) بحار الأنوار. ج٦٩، ص١٥٨، حديث٣.
(٢) بحار الأنوار. ج٦٩، ص١٥٨، حديث٥.
(٣) المصدر نفسه. ص١٦٠، حديث١٠.

منهم هذا الأمر؟ فقال: «لا، إنما هذه للمؤمنين خاصّة، قلت له: أصلحك الله، أرأيت من صام وصلّى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب، فقال: إنّ الله يدخل أولئك الجنة برحمته»[١].

٥. ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ قال عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ «رضى جدي أن لا يكون في النار موحّد»[٢].

إننا بحاجة ماسّة إلى نشر هذه الثقافة الإنسانية التي تعزّز التسامح في النفوس، وتقرّب المسلمين إلى بعضهم بعض، ليكونوا أمة واحدة وصفًّا واحدًا، كما أراد الله تعالى، لا أن يكونوا متباغضين متناحرين كما يريد الشيطان وأتباعه.

(١) المصدر نفسه. ص١٦٢، حديث١٩.

(٢) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٠، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة)، ص٣٨٢.

التواصل المذهبي وما بعد العنف الطائفي

﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[سورة الأنبياء، الآية: ٩٢].

الزلزال الرهيب

مـرّت بالأمـة أزمـات عديدة في هـذا العصـر، وأصابـت المنطقة أعاصيـر مختلفة، لكن ظهور حركة عنفية إرهابية، تتبنّى القتل والتدمير بأبشـع الصـور، وتتباهى بها وتروجها ضمن وسـائل إعلامها، من ذبح وإعدامـات وإحـراق لأناس أحياء، وسـبي للنسـاء، وتدافـع عن ذلك علنًا!! وتسـيطر علـى أراضٍ تعلن عليها خلافتها، وتجـد لها أتباعًا من مختلف أنحاء العالم، هذا ما فاق كلّ التصورات والتوقعات، إنه زلزال رهيب.

حتى إنّ الإنسان ليتساءل عن المشاهد التي يراها ويسمع عنها: هل هذا واقع؟!

هل يمكن أن تحصل هذه الجرائم البشعة باسم الإسلام؟!!

نعم .. لقد حصل ذلك!!

في ١٠ يونيو ٢٠١٤م اسـتولت (داعـش) على حوالي ١٠٨ آلاف

كلم مربع، أي ٤٠٪ من مساحة العراق. إضافة إلى ما كانت استولت عليه من نصف أراضي سوريا.

ويقدر أعداد مقاتليه في العراق بين ٣٠ إلى ٥٠ ألف مقاتل

كما انضم إليه أكثر من ٤٠ ألف مقاتل أجنبي من ٨١ دولة سافروا للقتال في سوريا والعراق.

وتقدر ثروة التنظيم بملياري دولار من الأموال السائلة والأصول، مما يجعله من أغنى الجماعات المسلحة على مستوى العالم.

داعش والحرب الطائفية:

في موضوع (داعش) أبعاد كثيرة، حول تكونها، وارتباطاتها، ودعمها، وطريقة إدارتها، وكلّ بعد تتعدد فيه التحليلات والآراء، لكن ما يهمنا في هذا المجال هو البعد الطائفي المذهبي.

بالطبع إنّ (داعش) لم تقتصر على قتال الشيعة، بل استهدفت السنة أيضًا، إضافة إلى الأيزيديين والمسيحيين وأتباع سائر الأديان، فلم يسلم أحد من شرّ هذه الحركة الإرهابية.

لكننا في هذا البحث نتناول البعد المذهبي، فقد أعلنت هذه الحركة الإرهابية حربها على الشيعة، واستهدفت وجودهم في كلّ مكان، وحركت عناصرها للقيام بالتفجيرات في المساجد والحسينيات والمواكب، كما رأينا في باكستان وأفغانستان والسعودية والكويت فضلًا عن العراق وسوريا، وهي تعلن في بياناتها وإعلامها استهدافها للشيعة.

وهـذا مـا يطرح ضـرورة العـودة إلى بحـث العلاقـات المذهبية، لقد اسـتفادت هذه الحركـة وأمثالها من أرضية فكريـة طائفية، وأجواء غير مسـتقرة في العلاقـات البينية، وتراث مشـحون بمبررات الخلاف والصراع المذهبي.

الدراسة والمراجعة:

فـلا بُدّ أن تعـود الأمة وعلى رأسـها المفكرون والعلمـاء والدعاة والقيـادات المهتمة، لدراسـة هذا الزلزال الرهيـب الذي حصل خلال هذه السنوات.

ونجد أنفسنا أمام خيارين:

- إمـا الاستسـلام لمفاعيـل هـذا التوجـه العنفي الطائفـي، وما يتركه من ارتدادات على النفوس والأفكار، في أتباع (داعش) والمتأثريـن بهـا، أو فـي نفـوس الضحايـا والمتضرريـن من جرائمها.
- والخيار الآخر ملاحقة هذه المفاعيل حتى لا تنمو وتتفجر من جديد.

ولكن من المسؤول عن دراسة الحالة والمراجعة والملاحقة؟!

إننـا جميعًا نتحمل المسـؤولية لمواجهـة هذه الآثـار والمفاعيل، فحكومـات المنطقـة معنيـة بسـدّ الثغرات، والسـيطرة على المشـكلة المذهبيـة، فـي إطار تعزيـز الوحـدة والاندمـاج الوطني، والمؤسسـة

الدينية للسنة والشيعة، مسؤولة عن إعادة النظر في خطابها وطروحاتها فيما يخصّ الجانب المذهبي، وليس صحيحًا الاستمرار في ترامي المسؤولية، بأن ترى المؤسسة الدينية عند السنة بأنّ المشكلة من الطرف الشيعي، وترى المؤسسة الدينية عند الشيعة بأنّ المشكلة هي من الجانب السني، فهذا لا يحلّ المشكلة، ولا يوصلنا إلى برّ الأمان.

كلٌّ منّا يجب أن يتحمل نسبة من الخطأ، قد نختلف في تقديرها.

وكمثال على ذلك في الحوادث المرورية، حتى لو كان الخطأ في الأساس من الطرف الآخر؛ لكونه مسرعًا، أو قاطعًا للإشارة، لكنك إذا كنت منتبهًا ومسيطرًا على قيادتك للسيارة، واتخاذ التصرف السليم، فقد تستطيع تجنب الكارثة أو التخفيف منها.

علينا أن نصارح أنفسنا، فليس صحيحًا أن نسترسل فيما كنا عليه قبل (داعش)، وكأنّ شيئًا لم يحدث، إنّ هذا يعني إعطاء الفرصة لتكرار ما حصل، وربما بشكل أشدّ وأقسى لا سمح الله.

ونرى أن المجتمعات الأخرى تدرس الظواهر والأحداث التي تمر بها، وتتخذ القرارات المطلوبة على ضوء دراستها.

حينما تقدّم الروس على الأمريكان في غزو الفضاء، اتخذوا إجراءات طالت مناهج التعليم في أمريكا، وخاصة في الجوانب العلمية الطبيعية كالفيزياء والرياضيات.

وهذا الحدث الكبير في مجتمعاتنا لا بُدّ أن يحرّكنا للمراجعة وإعادة

النظر، وللأسف فإنّ مسألة الدراسات الجادة للظواهر والمشكلات لا تحظى بالاهتمام اللازم في العالم الإسلامي.

فعن موضوع (داعش) بالذات صدرت دراسات كثيرة عن عدد من مراكز الأبحاث في العالم، ومن أوائل الدراسات، دراسة مهمة مثيرة صدرت سنة ٢٠١٤م عن مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب التابع للاستخبارات الإسرائيلية، ترجمته وطبعته عام ٢٠١٦م مؤسسة باحث للدراسات الفلسطينية الاستراتيجية، في ٣٦٠ صفحة. تحت عنوان: (داعش صورة عن تنظيم إرهابي جهادي .. رؤية صهيونية).

إنّه ينبغي لكلّ الجهات الرسمية والأهلية والدينية دراسة هذا الحدث، واتخاذ الإجراءات العملية الكفيلة بالحدّ من آثاره، وعدم تكراره في المستقبل.

تطبيع العلاقة بين المرجعيات الإسلامية

في تاريخنا الإسلامي كانت هناك انقسامات دينية في ساحة الأمة، وأمكن تجاوز معظم تلك الانقسامات أو تجميد آثارها.

كانت هناك خلافات بين أهل الرأي وأهل الحديث، ومن يقرأ التاريخ يتعرف على ألوان من الصراع والمواجهات بينهما، وقد استمرّ هذان الاتجاهان، لكن حالة الانقسام تم تجاوزها.

كما حدث انقسام بين الأشاعرة والمعتزلة، ثم تراجع هذا الانقسام، وبقي الاختلاف في حدوده العلمية.

وكانت هناك انقسامات بين المذاهب الأربعة، تصل في بعض المراحل إلى النزاع والمواجهات وسقوط الضحايا، وصدرت في تلك الحقبة الزمنية فتاوى متبادلة تحرم التزاوج بين أتباع هذه المذاهب، أو الصلاة خلف إمام مغاير في المذهب، لكننا اليوم لا نشهد تلك الانقسامات الحادة، حيث تحول الاختلاف بين اتباع المذاهب الاربعة

إلى مجرد تباين في الآراء العلمية.

وبقي الخلاف (السني ـ الشيعي) إلى يومنا هذا، لم تتم معالجته!!

بالطبع ليس مطلوبًا أن يتنازل أتباع أيّ مذهب عن شيء من معتقداتهم وآرائهم المذهبية، لكن المطلوب هو التعايش وتجاوز الانقسام الاجتماعي، حتى لا تصبح حالة الاختلاف مبعثًا للأخطار على الأمة ومجتمعاتها، فتتسلل مثل هذه التوجهات العنفية الإرهابية من ثغرة الاختلاف المذهبي.

ضمانات المعالجة:

كان لجهود العلماء المصلحين من السنة والشيعة في الستينيات من القرن الماضي، دور كبير في إنتاج ثقافة تعزز وحدة الأمة، ونبذ الخلاف، وتدعو للتواصل المذهبي على الصُّعد المحلية، والمستوى الإسلامي العام، كتأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وانعقاد المؤتمرات المختلفة، وقيام جماعات ونشاطات مشتركة بين أطراف شيعية وسنية، إنّ كلّ هذه المبادرات تشكر وتقدر، وينبغي أن تتواصل وتتوسع.

لكن هناك أمرين لا بُدّ من توفرهما للسير في الطريق الصحيح نحو نزع فتيل هذه المعضلة:

الأمر الأول: الحياد السياسي

وذلك بأن تتعامل الحكومات الإسلامية مع مواطنيها ضمن مفهوم

المواطنـة في الدولـة الحديثة، بعيدًا عن الخـلاف المذهبي، ودون أيّ تمييز في الحقوق والواجبات.

الأمر الثاني: تأسيس علاقة بين المرجعيات الدينية الكبرى (السنية والشيعية)

إنّ فظاعـة ما حصل من هذا الزلـزال الرهيب، تدعونا للتأكيد على ضـرورة القيام بمبادرة أكبر تسـتجيب لتحديـات المرحلة، وتتمثل في تلاقي المرجعيات الرئيسة لدى السنة والشيعة، واتفاقهم على التواصل الدائم، واعتماد صيغة للعلاقة الإيجابية بين الطرفين.

وهناك أربع مرجعيات دينية أساسية في العالم الإسلامي، مرجعيتان للسنة، تتمثل في سماحة المفتي وهيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وفي الأزهر وشيخ الجامع الأزهر في مصر.

ومرجعيتان للشيعة تتمثل في المرجعية العليا في النجف، ومرجعية الحوزة العلمية في قم.

إنّ مصلحـة الأمـة والعالم الاسـلامي، تقتضي التواصـل بين هذه المرجعيـات، وأن يكـون بينها خطوط ارتباط وتنسـيق، فما الذي يمنع من ذلك؟

إننا نشاهد انفتاحًا وتواصلًا بين المؤسسة الدينية في المملكة وفي الأزهر، وبين الفاتيكان وبابا المسيحية هناك.

ففـي غـرة شـهر شـعبان الماضـي ١٤٣٨هـ استقبل شـيخ الأزهر

الدكتـور أحمد الطيب، بابا الفاتيكان، الذي زار القاهرة للمشـاركة في «مؤتمـر الأزهر العالمي للسـلام»، وفي خطوة رائـدة زار الأمين العام لرابطة العالم الإسـلامي في المملكة العربية السـعودية الدكتور محمد بن عبدالكريم العيسـى حاضرة الفاتيكان يـوم الأربعاء، ٢٩ ذو الحجة ١٤٣٨هـ الموافق ٢٠ سبتمبر ٢٠١٧م.

وكان في اسـتقباله البابا فرانسـيس الثاني، وتم خـلال اللقاء تبادل وجهـات النظر حـول عـدد مـن المواضيـع ذات الاهتمام المشـترك، التـي تصب في صالح السـلام والوئام العالمـي، خصوصًا التعاون بين الفاتيكان والعالم الإسلامي في قضايا السلام والتعايش ونشر المحبة.

وأعرب معالي الدكتور محمد العيسـى عن تقدير العالم الإسلامي لمواقـف البابـا العادلـة والمنصفة تجـاه الدعـاوى الباطلـة التي تربط التطرف والعنف بالإسلام.

وفي نهاية اللقاء تبادل قداسة البابا مع معالي الشيخ العيسى الهدايا التذكارية.

كمـا التقى الدكتور العيسـى ضمن جدول الزيارة الرسـمية أعضاء المجلس البابوي[1].

وكان رئيـس المجلـس البابـوي بالفاتيكان الكردينـال جان لوري توران، قد أشـاد باللقاء التاريخي، مشـيرًا إلى أنّ هذا اللقاء فتح صفحة

(١) جريدة الرياض. الخميس غرة محرم ١٤٣٩هـ الموافق ٢١ سبتمبر ٢٠١٧م.

جديدة من الصداقة والتعاون بين الفاتيكان والعالم الإسلامي، لمواجهة التحديات والأخطار التي تواجه العالم اليوم، وتحتاج إلى تكاتف الجميع.

من جهة أخرى، أكد الدكتور العيسى أنّ رابطة العالم الإسلامي على أتم الاستعداد للتعاون مع جماعة (سانت إجيديو) المنظمة الدولية الإنسانية في جميع المجالات التي تخدم التواصل الحضاري بين الشعوب والمنظمات[١].

كما تقرر تكوين لجنة اتصال دائمة بين الفاتيكان، ممثلًا بالمجلس البابوي، ورابطة العالم الاسلامي لبحث عدد من المبادرات[٢].

ولا شك أنّ مثل هذه المبادرات واللقاءات مع رأس الكنيسة المسيحية، مفيد ومهم جدًّا، وخاصة في الزمن الحاضر، لتلافي آثار وتداعيات التوجهات الإرهابية المتطرفة، على علاقة المسلمين بأبناء الديانات الأخرى.

وكذلك فإن الحاجة ماسّة أيضًا لتفعيل التواصل بين قيادات المذاهب داخل الأمة الإسلامية، وهي أكثر إلحاحًا وأهمية، لحماية مجتمعات الأمة وأوطانها من التمزّق والاحتراب.

إنّ الحكومات ينبغي أن تدفع باتجاه تلاقي هذه المرجعيات، فذلك

(١) جريدة الوطن السعودية. الثلاثاء ٢٦ سبتمبر ٢٠١٧م.
(٢) جريدة عكاظ. الثلاثاء ٦ محرم ١٤٣٩هـ الموافق ٢٦ سبتمبر ٢٠١٧م.

ما يفيد الحكومات ويساعدها في تخفيف الاحتقان والتوتر المذهبي، وهو ما يفترض أن تتطلبه هذه الحكومات، وأنّ على الواعين من أبناء المجتمعات الإسلامية أن يطالبوا مرجعياتهم بتحقيق هذه الخطوة.

ونأمل أن يساعد تطور العلاقات بين المملكة والعراق، وافتتاح قنصلية سعودية في النجف ـ كما جرى الحديث عنه في وسائل الإعلام ـ على تحقيق ذلك.

في ذات الوقت فإنّ هناك تطورًا في العلاقات المصرية العراقية يخدم هذا الاتجاه.

أنموذج مسيحي في العلاقات المذهبية:

شهد العالم في ١٢ فبراير ٢٠١٦م حدثًا هامًّا على صعيد العلاقات الدينية المذهبية المسيحية، تجسّد في لقاء رأسي الكنيستين الكاثوليكية الرومانية الغربية، والأورثوذكسية الشرقية، بعد خلاف مرير دام أكثر من ألف سنة، فقد شكّل الانقسام بين الكنيسيتين أكبر انشقاق شهدته المسيحية عبر تاريخها، والذي حدث سنة ١٠٥٤ ميلادية، ومنذ ذلك الحين انقسمت المسيحية إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية التي يتبعها غالبية المسيحيين في العالم، بتعداد يفوق المليار ومئتي مليون من الأتباع، في مقابل الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وتعداد أتباعها يربو على ٢٥٠ مليونًا، ولهذه الكنيسة بدورها عدة كنائس، أبرزها تلك الموجودة في العاصمة الروسية موسكو ويتبعها نحو ١٦٥ مليون شخص.

ويعود سبب الانقسام بين الكاثوليكية والأرثوذكسية إلى خلافات عقدية، إلى جانب التنافس على الزعامة بين الكنيستين، حيث ترفض الكنيسة الشرقية الخضوع للكنيسة الغربية، وتعتبر نفسها الممثل الحقيقي للكنيسة، بالنظر إلى انبثاق المسيحية في الشرق، أضف إلى ذلك من أسباب الخلاف، الاتّهامات المتبادلة بالتبشير لمذهب كلّ كنيسة في وسط أتباع الكنيسة الأخرى، الذي تشتكي منه الكنيسة الشرقية بقوة، حيث اشتدّت هذه الاتّهامات بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

واللافت في الأمر أنّ ذات الأسباب الباعثة على التوتر بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، تكاد تتطابق مع أسباب التوتر بين المسلمين الشيعة والسنة، من حيث الخلاف العقدي، والتنافس على النفوذ، إلى جانب الشكوى من التبشير المذهبي المتبادل.

ورغم الصراع الطويل بين أتباع الكنيستين، والذي كان مشوبًا بالعنف والاحتراب في بعض الازمان، إلّا أنّهم تجاوزوا حالة الاحتراب والعنف، وأقصى ما يمكن أن يقال على هذا الصعيد أنّ هناك «حربًا باردة» بين الطرفين.

وقد كانت هناك مساعٍ جدّية نحو ترتيب لقاء مباشر بين رأسي الكنيستين، باءت جميعها بالفشل، إلى أن نجحت الجهود مؤخّرًا في ترتيب اللقاء الأول بينهما في العاصمة الكوبية هافانا، وذلك بعد نحو ألف سنة من الانفصال، وقد قضى زعيما الكنيستين لقاءً دام نحو

الساعتين، ثم خرجا ببيان مشترك، يبشّران فيه بعلاقة جديدة أقرب للتعاون بينهما.

وما يلفت النظر أنّ أحد الطرفين يمثل الأكثرية المسيحية الغربية، بتعداد يربو على المليار و٢٠٠ مليون، فيما يمثل الآخر الأقلية بنحو ٢٥٠ مليون من المسيحيين الشرقيين، إلّا أنّهما في نهاية المطاف التقيا، واتفقا على عدد من الأمور، ومن أبرزها بحسب وكالة الأنباء الكاثوليكية، أمران:

الأول: الوقوف ضدّ الاضطهاد الذي يتعرّض له المسيحيون وخاصة في الشرق الأوسط، لجهة خطر الإبادة والتهجير، نتيجة الإرهاب والتطرف الذي أخذ عنوان الإسلام، ليطوي الطرفان صفحة الخلافات ويتفقا على توحيد الجهود في هذا الملف.

الأمر الثاني، أن تتعاون الكنيستان المؤمنتان بالأخلاق التقليدية على ترسيخ هذه الأخلاق، في مقابل سيطرة الأخلاق الليبرالية التي تسود العالم.

حينما نقرأ تاريخ العلاقات المذهبية بين علماء الفريقين (السنة والشيعة)، نرى أنّ هناك خطًّا إيجابيًّا يدعو إلى التواصل والتقارب، يقابله خط سلبي يمانع التقارب والتواصل، ويدعو إلى القطيعة والتباعد، وكما في الماضي هو في الحاضر أيضًا.

نماذج إيجابية

١. ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج١٠ ص٢٦٢: كان عبد الرحمن بن صالح الأزدي رافضيًّا وكان يغشى أحمد بن حنبل، فيقربه ويدنيه، فقيل له: يا أبا عبد الله، عبد الرحمن بن صالح رافضي.

فقال: سبحان الله، رجل أحبّ قومًا من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم نقول له: لا تحبّهم! هو ثقة.

هكذا كان الإمام أحمد منفتحًا على هذا الشخص الذي يختلف

معه في الـرأي والمذهب، وهناك من يعتـرض عليه في انفتاحه وتواصله، وهي حالة تتكرر اليوم.

٢. تحدث السيد عبدالحسين شرف الدين في كتاب (المراجعات) عـن اعتمـاد علمـاء السـنة ومحدثيهم لروايـات نقلهـا رواة من الشيعة، مع وضوح تشيعهم. وقد أثبت أسماء مئة منهم.

فمثلا: أَبان بن تَغْلِبْ جاء في أسناد أحاديث من صحيح مسلم، وسنن أبي داوود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وقد ترجمه الذهبي في ميزان الاعتدال، فقال عنه: شيعي جلد لكنه صدوق، فلنـا صدقه وعليه بدعته، وقد وثقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وأبو حاتم، وأورده ابن عدي وقال: كان غاليًا في تشيعه.

وكذلـك أحمد بـن المفضل بن الكوفي، أخرج عنـه أبو داوود، والنسـائي، وقال عنه الذهبي: كان أحمد بن المفضل من رؤساء الشيعة، صدوقًا.

وقد أحصى الشـيخ محمد جعفر الطبسـي ١٤٠ اسـمًا في كتابه (رجال الشيعة في أسانيد السنة)[1] الذي طبع مؤخرًا.

٣. وكمـا اعتمد علماء السـنة رواة من الشـيعة، أخذ علماء الشـيعة بروايات الثقاة من أهل السنة.

(١) محمد جعفر الطبسـي. رجال الشـيعة في أسـانيد السـنة (دراسـة تفصيلية حول رجال الشـيعة فـي أسـانيد الكتب السـتة)، الطبعة الأولـى ١٤٢٠هـ، (قم: مؤسسـة المعارف الإسلامية).

فمثلًا السَّكُونِيِّ (إسماعيل بن أبي زياد السَّكُونِيِّ) وهو راوٍ سني، نقلت عنه الكتب الأربعة وهي أهم مصادر الحديث عند الشيعة ١٠٦٧ رواية، بل إن مستند بعض الفتاوى منحصر في روايته، فقد أفتى الشيخ الصدوق في بعض الموارد بناءً على رواية وحيدة منقولة في الباب، هي رواية السكوني، ومنها، الأبواب التالية: الشفاعات في الأحكام، دية مفاصل الأصابع، ما يجب على من عذّب عبده حتّى مات، ما يجب على من أشعل نارًا في دار قومٍ فاحترقت الدار وأهلها، من مات في زحام الأعياد أو عرفة أو على بئرٍ أو جسر لا يُعلم من قتله..، وقد صرّح الشيخ الصدوق في المشيخة بالأخذ عن كتابه.

٤. تحدث الشهيد الثاني الشيخ زين الدين بن علي الجبعي العاملي، شارح كتاب (اللمعة الدمشقية) الذي يدرس في الحوزات العلمية الشيعية (توفي شهيدًا عام ٩٦٦هـ). في ترجمته لنفسه، أنه أخذ العلم عن ستة عشر عالماً من علماء السنة في دمشق ومصر.

منهم الشيخ شمس الدين بن طولون الدمشقي الحنفي، والشيخ شهاب الدين أحمد الرَّمْلي الشافعي، والشيخ شهاب الدين بن النجار الحنبلي، والشيخ زين الدين الحري المالكي وغيرهم.

٥. ونجد أنّ السيد البروجردي وهو مرجع أعلى للشيعة في إيران (توفي ١٣٨٠هـ) وضع مشروعًا لجمع أحاديث السنة والشيعة

في مصـدر واحد، مصنّفة حسـب الأبواب والمسـائل الفقهية، وشـكّل لجنة من تلامذته فيها أربعة وعشرون من الفضلاء، من بينهم الشـيخ محمد واعظ زاده الخراسـاني، وقد نقل إنّ السيد كان يرى إيراد روايات أهل السـنة في ذيل أبواب الكتاب، إذ في الجمع بينها فوائد، وللنظر فيها جميعًا دخل في الاستنباط، وبعد بدء العمل بمدة حصلت ضغوط على السيد، فغيّر رأيه للاقتصار على أحاديث الشـيعة قائلًا: إنّ الناس عندنا لا يتحمّلون هذا في وقتنا الحاضر، وإني أخاف الفتنة فنكلها إلى وقت مناسب.

وهكذا صدر كتاب (جامع أحاديث الشيعة) في ٣١ مجلدًا.

٦. في لقاء جمع السيد السيستاني ومجموعة من علماء العراق خلال اسـتقبال سـماحته وفدًا منهم ـ فـي ختام أعمـال الملتقى الثاني للعلماء المسـلمين السنة والشـيعة، الاثنين ١٢/ ١١/ ١٤٢٩هـ الموافـق ١٠/ ١١/ ٢٠٠٨م ـ تحدث عن تتلمذه على يد عالم سـني، قال: «درست عند الشـيخ أحمد الراوي، وهو من علماء السنة في سامراء، ولم يكن يخطر ببالي أنه على غير مذهبي»[١].

وهناك أمثلة ونماذج كثيرة لمبـادرات التواصل والتعاون بين علماء من السـنة والشـيعة في الماضي والحاضر، لكن المأمول والمطلوب أن تكون هي الحالة الطبيعية والسائدة بين الجانبين، وليست موارد معدودة.

(١) http://www.alanba.com.kw/kottab/badr-alkhodhari/181966/26-03-2011

ممانعة التواصل والتقريب

هناك أسباب تمنع التواصل والتقارب، نشير هنا إلى أحد أهم تلك الأسباب، وهو وجود قوى الممانعة والرفض في الجانبين.

فحينما أنشئت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة عام (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٧م) واجهتها ممانعة شديدة وخاصة من المتشددين السلفيين الذين رفضوا أيّ فكرة أو مشروع للتقارب والتواصل، وأصدروا الفتاوى والكتب ضد هذا المنحى.

وتوجد الآن قنوات فضائية طائفية، من جهات سنية وشيعية، رسالتها ووظيفتها معارضة أيّ مسعى للتقارب والتواصل بين الجانبين.

ورأينا ذلك في تجربتنا الوطنية للتواصل مع إخواننا السلفيين في المملكة، حيث بدأنا بزيارات ولقاءات متبادلة، وكانت ـ بحمد الله ـ إيجابية مثمرة[١].

لكنها واجهت نوعًا من الرفض والممانعة من بعض الجهات السنية والشيعية، فهناك في الجانب السني من شنّ هجومًا على العلماء الذين التقوا بنا من إخواننا أهل السنة، وكذلك من الجانب الشيعي أيضًا كانت هناك ردود فعل رافضة لمثل هذا المسعى، حيث صدرت بيانات تندّد باستضافة بعض الشخصيات السلفية في القطيف.

---

(١) جمعها الأستاذ عبدالباري الدخيل في كتاب بعنوان: (السلفيون والشيعة تجربة حوار)، الطبعة الأولى ٢٠١٢م، (بيروت: الانتشار العربي).

لماذا يمانعون التواصل والتقارب؟

نشير هنا إلى بعض المبررات التي يتذرّع بها المعارضون للتواصل والتقارب المذهبي، وإلى الخلفية التي ينطلق منها هذا الموقف، وهي:

١. القلق على الهوية المذهبية والخوف من تقديم التنازلات وإعطاء الشرعية للآخر.

٢. المزايدة والظهور بمظهر الغيرة على العقيدة.

٣. نزعة التطرف.

٤. التأثر بتوجهات ومشاريع سياسية، فهناك قوى دولية وإقليمية تستثمر سياسيًّا في الصراع المذهبي.

دور الجمهور

يجب أن يكون للجمهور دور أساس في دعم توجهات التقارب والتواصل، فهو الخاسر الأكبر من الصراعات الطائفية؛ لأنّ الحكومات تحمي نفسها، والمشايخ يرتّبون أوضاعهم، لكن عامة الناس هم المتضررون.

على الناس أن يتحلوا بالوعي، وألّا يتجاوبوا مع التعبئة الطائفية، بل يجب أن يقفوا أمامها، وكم هو رائع أن يقف الواعون من الجمهور السني أمام الخطيب السني الذي يعبّئ ضد الطوائف الأخرى، أو يدعوا عليهم؟

وكم هو رائع أيضًا أن يقف الجمهور الشيعي أمام الخطيب الشيعي

الذي يشنّع على الآخرين وينال من رموزهم؟.

إنه من المشروع والمطلوب من الخطيب السني أن يبيّن آراء مذهبه لجمهوره، كما هو مشروع ومطلوب من الخطيب الشيعي مثل ذلك، ولكن كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥].

وقد ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «أتُحِبّونَ أن يُكَذَّبَ اللهُ ورَسولُهُ؟! حَدِّثُوا النّاسَ بِما يَعرِفونَ، وأمسِكوا عَمّا يُنكِرونَ»[١].

ويقول مدرك الهزهاز، قال لي الإمام الصادق عليه السلام: «أقرئ أصحابنا السلام ورحمة الله وبركاته، وقل لهم: رحم الله امرأً اجترّ مودة الناس إلينا، فحدّثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون»[٢].

وورد عن عبد السلام بن صالح الهروي قال سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «رحم الله عبدًا أحيا أمرنا. فقلت له: فكيف يحيي أمركم؟ قال عليه السلام: يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا»[٣].

(١) بحار الأنوار. ج ٢، ص ٧٧، حديث ٦٠.
(٢) المصدر السابق. ج ٢، ص ٦٨، حديث ١٥.
(٣) محمد بن علي بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ١، ص ٢٧٥، حديث ٦٩.

الالتزام الديني بين المرونة والتشدد

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٨٥]

مشـرّع الدين للإنسان هو خالق الإنسان الأعرف بوضعه وطبيعته، ﴿أَلا يَعْلَـمُ مَـنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، والتشـريع يسـتهدف خير الإنسـان ومصلحته وسـعادته، وليس فيـه مصلحة أو منفعة للـه، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْـكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

ورد عـن علي عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الله سُـبْحَانَهُ وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لِإِنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ»[1].

مـن هـذا المنطلق لا بُدّ وأن يأخذ التشـريع الإلهي وضع الإنسـان بعين الاعتبار، فلا يفرض عليه ما ينافي طبيعته، ويتجاوز طاقته، ويسبب له حرجًا في حياته.

(١) نهج البلاغة. ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المتقين، رقم ١٩٣.

وهـذا ما يقرره القـرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، كمـا تؤكد آيات قرآنية نفي الحـرج في التكليف الديني، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ويقول سـبحانه وتعالـى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُـمْ مِنْ حَرَجٍ﴾، ويقرر تعالى إرادته لليسـر في التشـريعات والأحكام الدينية، يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾.

وعلـى ضـوء هـذه الآيـات الكريمـة وأمثالهـا، وكذلـك كثير من الأحاديـث والروايـات، قـرر العلمـاء قاعدة (نفـي العسـر والحرج)، ومفادها أن أيّ حكم شرعي يسبب العسر أو الحرج منفي شرعًا. بمعنى سقوط التكليف به على الانسان.

وعلى أساس هذه القاعدة أفتى الفقهاء في مختلف أبواب الفقه.

والحـرج: هـي المشـقة التي تكـون فـوق المتعارف، ويشـخّصها المكلف نفسـه، فالذي يرفع التكليف هو الحرج الشـخصي. والعسـر بمعنى الحرج.

وحينما يطلق اللفظان معًا الحرج والعسـر، يقصد بالحرج المشقة النفسية، وبالعسر المشقة البدنية والمادية.

الالتـزام بالديـن أمر مطلـوب، ولا يصح التسـاهل ولا التمييع في القضايـا والأحكام الدينية، يقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾،

ويقول تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ومخالفة أي أمر شرعي تعني ارتكاب المعصية والذنب، ولا يصح الاستهانة والاستخفاف بأي معصية لله تعالى، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ»[1].

فالإنسـان المؤمن يجـب أن يلتزم بأمور الديـن التزامًا كاملًا، وفق طاقته ووسعه (اتقوا الله ما استطعتم)، لكن الالتزام بالدين يكون ضمن المنهجية التي وضعها الدين، وهي منهجية الوسـطية والاعتدال، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

(١) نهج البلاغة. الحكمة (٣٤٨).

فكما أنّ التساهل مرفوض، فإنّ الغلوّ والمبالغة والتشدد مرفوض أيضًا، يقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: إياكم والغلوّ في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ في الدين(١).

وقد حذّرت النصوص الدينية من التشدد ضمن عناوين ومصطلحات عديدة، فقد ورد عنه ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا»(٢).

والتنطع لغة هو: التعمق والغلو في الكلام، مأخوذ من النِّطع وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل تعمق قولًا وفعلا(٣).

وعنه ﷺ: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدّد الله عليكم»(٤).

وعنه ﷺ: «إيّاكم والتعمق في الدين فإنّ الله تعالى قد جعله سهلًا»(٥).

وفي لسان العرب: المتعمق: المبالغ في الأمر المتشدّد فيه الذي

(١) محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج١، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٦٦.
(٢) صحيح مسلم. كتاب الْعِلْمِ، بَابُ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، حديث ٢٦٧٠.
(٣) المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير). النهاية في غريب الحديث والأثر، (قم: مؤسسة اسماعيليان للطباعة)، ج٥، ص٧٤.
(٤) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داوود، كِتَاب الْأَدَبِ، بَابٌ فِي الْحَسَدِ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجنان ـ مؤسسة الكتب الثقافية)، حديث ٤٣٢١.
(٥) كنز العمال. حديث ٥٣٤٨.

يطلب أقصى غايته[١].

ومع وجود نصوص كثيرة تدعو للاعتدال والوسطية إلّا أنها مغيّبة في الخطاب الديني!!

بل إننا نجد دعوات، تدعو للمبالغة والتشدّد، خلافًا للنصوص الشرعية.

(١) لسان العرب. حرف العين (عمق)، ج١٠، ص٢٧١.

١ / التشدد في المجال العقدي:

العقيدة الدينية في أصلها سهلة واضحة، فهي تتلخص في: الإيمان بالخالق الموجد، وبالرسول الذي بعثه، وأنّ هناك دارًا آخرة، هذه هي أصول الدين التي يتحقق بها عنوان الإسلام (التوحيد والنبوة والمعاد)، وهناك أصول مذهبية كالعدل والإمامة عند الشيعة.

هذه الأصول هي ما يجب الاعتقاد به، وبذل الجهد في معرفته، أما التفاصيل في التوحيد والنبوة والعدل والإمامة والمعاد، فلا يجب الاعتقاد بها، أو بذل الجهد في معرفتها، وهذا ما اختاره المحققون وجمع من الأعلام، لكنّ بعضهم كالعلامة الحلي في الباب الحادي عشر أدرج الكثير من التفاصيل الاعتقادية في عداد ما يجب الاجتهاد في معرفته، وأنّ (من جهل شيئًا من ذلك خرج عن ربقة المؤمنين،

واستحق العقاب الدائم)[١].

واعترض عليه الشيخ الأنصاري في فرائد الأصول، قال رحمه الله: وقد ذكر العلامة (قدس سرّه) في الباب الحادي عشر ـ فيما يجب معرفته على كلّ مكلّف من تفاصيل التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد ـ أمورًا لا دليل على وجوبها كذلك، مدّعيًا أنّ الجاهل بها عن نظر واستدلال خارج عن ربقة الإيمان مستحق للعذاب الدائم. وهو في غاية الإشكال[٢].

وجاء في تقريرات بحث المحقق الشيخ ضياء الدين العراقي: وأما المقدار الواجب منها فإنما هو المعرفة بالمبدأ (الله) جلّ شانه، وبوحدانيته، وبما يرجع إليه من صفات الجمال والجلال، وكذا معرفة أنبيائه ورسله وحججه، الذين هم وسائط نعمه وفيضه، وكذلك الحشر والنشر ولو بنحو الإجمال، وأما ما عدا ذلك، كتفاصيل التوحيد، وكيفية علمه وإرادته سبحانه، وتفاصيل المحشر وخصوصياته، وأنّ الميزان والصراط بأيّ كيفية ونحو ذلك، فلا يجب تحصيل العلم ولا الاعتقاد بها بتلك الخصوصيات، «نعم» في فرض حصول العلم بها من الخارج، يجب الاعتقاد وعقد القلب بها، فوجوب الاعتقاد بخصوصيات الأمور المزبورة إنما كان مشروطًا بحصول العلم بها من

(١) الباب الحادي عشر، للعلامة الحلي، ص٥.
(٢) الشيخ مرتضى الأنصاري. فرائد الأصول، ج١، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٥٥٩.

بـاب الاتفـاق، لا أنّ وجوبهـا مطلق حتى يجب تحصيـل العلم بها من باب المقدمة[١].

وقـال السـيد كاظـم اليـزدي: والحـقّ والتحقيـق، أنّ الواجب من المعرفة ليس إلّا ما يعتبر من الإسلام والإيمان وضعًا[٢].

إنّ تكليـف عامة الناس بالمعرفة التفصيلية هو أشـبه بالتكليف بما لا يطـاق، لقصورهـم عن إدراك تلـك المعارف، وإلزامهـم بتحصيلها يستلزم انصرافهم عن الكثير من أعمالهم اليومية، ومتطلباتهم الحياتية، وهو ما يؤدي إلى اختلال النظام[٣].

وفي الحديث عن إسماعيل الجعفري قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الدّين الّذي لا يسـع العباد جهله، فقال: الدّين واسـع، ولكنّ الخوارج ضيّقوا على أنفسهم من جهلهم،

قلت: جعلت فداك، فأحدّثك بديني الّذي أنا عليه؟

فقال: بلى.

فقلت: أشـهد أن لا إله إلّا الله، وأشـهد أنّ محمّدًا عبده ورسـوله، والإقرار بما جـاء من عند اللّه وأتولّاكم، وأبرأ من عدوّكم، ومن ركب رقابكم، وتأمّر عليكم، وظلمكم حقّكم.

---

(١) نهاية الأفكار، تقرير الشـيخ محمد تقي البروجردي النجفي لدرس الشـيخ ضياء الدين العراقي، ج٣، (قم: انتشارات لإسلامي)، ص١٨٩.
(٢) حاشية فرائد الأصول. ج١، ص٦٦٧.
(٣) أصول الاجتهاد الكلامي. ص١٣٣.

فقال: ما جهلت شيئًا، هو والله الّذي نحن عليه[١].

وإذا كان ذلك هو المقدار الواجب، فإنّ التوسع في المعرفة والتفقه في الدين أمر محبّذ، وكلّ ما علم به الإنسان أنه من الدين، وثبت له انتسابه إلى الدين، وجب عليه الإيمان به، وإلّا كان مكذبًا لله أو لرسوله ﷺ.

وما لم تثبت لديه نسبته، لا يجب عليه الإيمان به، ولكن لا يصح له التسرع في إنكاره إذا لم يكن متخصصًا باحثًا.

ونجد تحذيرًا في الدين من الاستغراق في الخيال العقدي والجدل الكلامي، كما رود عنه ﷺ: «تَفَكَّروا في خَلقِ اللّه ولا تَفَكَّروا فِي اللّهِ فَتَهلِكوا»[٢].

وفي سنن الترمذي: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، قَالَ: فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ الرُّمَّانُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَوْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَيْثُ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ»[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَالتَّفَكُّرَ فِي الله، وَلكِنْ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ

(١) الكافي. ج ٢، ص٢٩.
(٢) كنز العمال. ج٣، ص١٠٦، حديث ٥٧٠٥.
(٣) سنن الترمذي. كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، ج٣، ص١٨٨، حديث ٢١٣٣.

تَنْظُرُوا إِلى عَظَمَتِهِ، فَانْظُرُوا إِلى عَظِيمِ خَلْقِهِ»[١].

وسُئِلَ علي عليه السلام عَنِ الْقَدَرِ، فَقَالَ: «طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلَا تَسْلُكُوه، وبَحْرٌ عَمِيقٌ فَلَا تَلِجُوه، وسِرُّ اللَّه فَلَا تَتَكَلَّفُوه»[٢].

ولما ثار الجدل والنـزاع حول خلق القرآن كتب الامام الهادي عليه السلام إلى بعض شـيعته ببغداد: «الجِدال فِي القُرآنِ بِدعَةٌ، اشتَرَكَ فيهَا السّائِلُ وَالمُجيبُ، فَيَتَعاطَى السّائِلُ ما لَيسَ لَهُ، ويَتَكَلَّفُ المُجيبُ ما لَيسَ عَلَيهِ، ولَيسَ الخالِقُ إلَا الله عَزَّ وجَلَّ، وما سِواهُ مَخلوقٌ»[٣].

وسـأل رجل الإمام الكاظم عليه السلام: «الكفر أقدم أم الشرك؟، فقال عليه السلام له: مالك ولهذا ما عهدي بك تكلم الناس»[٤].

ورد عن الإمـام الكاظم عليه السلام أنه قال لعلي بن يقطين: «مُر أصحابَكَ أن يَكُفّوا مِن ألسِنَتِهِم، ويَدَعُوا الخُصومَةَ فِي الدّينِ، ويَجتَهِدوا في عِبادَةِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ»[٥].

لكن المشكلة أنّ هناك من يتشدد في مجال الاعتقاد، وينعكس هذا التشـدد على علاقاته مع من حوله، بينما التوجيهـات الدينية تدعو إلى

(١) الكافي. ج١، ص٩٣، حديث ٧.
(٢) نهج البلاغة. حكمة رقم (٢٨٧).
(٣) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق). التوحيد، (بيروت: دار المعرفة)، ص ٢٢٤، حديث ٤.
(٤) محمد بن الحسـن بن شـعبة الحراني. تحف العقول فيما ورد عن آل الرسـول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ٤١٢.
(٥) التوحيد. ص٤٦٠، حديث٢٩.

نبذ الاختلاف والنزاع.

وكم عانت مجتمعات الأمة من الصراعات والنزاعات حول بعض التفاصيل في القضايا العقدية، في الماضي والحاضر، بدءًا من النقاش حول مسألة الكلام الإلهي؟ وأنه ما هو؟ وهل هو حادث أو قديم؟ وما ترتب عليها من فتن لاحقة عرفت بمحنة خلق القرآن، مرورا بمسألة التجسيم والتشبيه المرتبطة بالذات الإلهية، وإمكانية أو امتناع رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومسألة الجبر والاختيار المتعلقة بمبحث القضاء والقدر.

ولا ينحصر النزاع في المسائل العقدية فيما بين المذاهب والطوائف الإسلامية، بل لا يكاد يخلو مذهب أو طائفة من صراعات عقدية داخلية في اطار المذهب والطائفة ذاتها، من السنة والشيعة.

وقد اطّلعت مؤخرًا على كتاب ضخم تبلغ صفحات الجزء الأول منه (٧٥٠) صفحة يتناول الخلاف بين علماء الشيعة حول علم الإمام بساعة وفاته ورحيله، ويردّ بلغة عنيفة قاسية على من ينكر ذلك، وعنوان الكتاب: (حجارة من سجيل في الرد على من أنكر علم الأئمة بساعة الرحيل)[1].

وعلى هذا النسق من التوتر والتشنج تدار الخلافات حول بعض التفاصيل العقدية، التي لا يجب البحث فيها، ولا يلزم الايمان بها

(١) الشيخ علي يوسف القطيفي. الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ، (بيروت: مؤسسة المعارف الإسلامية).

فـي الأصل، وقد تصبح سـببًا لشـقاق ونـزاع يضعف وحـدة المجتمع وانسجامه، ويدفع للعدوان المتبادل، وانتهاك حقوق الأخوة الإسلامية والإنسانية.

٢ / التشدد في العبادة والأحكام:

العبـادات التـي شـرعها الله تعالى لهـا غايات و أهـداف، ووظيفة البرامـج العباديـة كالصـلاة والصـوم والحـج، تكريس حالـة العبودية فـي نفس الإنسـان لربـه وخالقه، وجعلـه علـى تواصل دائم مـع الله، مسـتحضرًا عظمته وذكره، مستلهمًا منها الاستقامة والصلاح في القيام بمهمـات الحياة، فبرامـج العبادة محطات يتزود الإنسـان منها بالوقود الروحي والمعنوي والاخلاقي، لتنعكس على مختلف جوانب حياته، لكن هناك من يتخذ العبادة بديلًا عن ممارسـة الحياة، أو شـأنًا مقطوعًا عن تفاعلاتها، ومن ثم يسـتغرق في أحكام تلك العبادات بشكل مبالغ فيه، قد يؤدي به إلى الهوس والوسواس.

وقد تأتي حالة التضخم في العبادات على المستوى الفردي، وأحيانًا تصبـح ظاهرة اجتماعية، فقد يندفع الشـاب دينيًّا فيقبـل على العبادات والشعائر الدينية بحماس شديد، في حين قد تمرّ بالمجتمعات حالات من الحماس الديني، وخاصة حين تعيش تلك المجتمعات صراعًا على الهوية الدينية، ما ينتج عنه حالة من الاندفاع والإقبال الشـديد، إلى حدّ التضخم في إظهار الجوانب العبادية والشـعائرية، على حساب المهام الأخرى، وهذا ما قد يؤدي إلى مفعول سلبي نتيجة الإفراط، جريًا على

المثل القائل: «كلّ شيء زاد عن حدّه، انقلب إلى ضدّه».

وفي هذا السياق، ينبغي الإشارة إلى باب في مصادر الحديث المعتمدة عند المسلمين، ككتاب «الكافي» و«بحار الأنوار» عند الشيعة، وكتاب «رياض الصالحين» عند السنة، وعنوان هذا الباب؛ (الاقتصاد في العبادة)، ولكن قلّما سلّطت عليه الأضواء، وفحواه الحثّ على النأي عن الزيادة في العبادة، وترك المبالغة فيها.

والمشكلة أنّ مجرّد الحديث عن هذا الموضوع، أي الاقتصاد في العبادة، بات سببًا للاتّهام من قبل المزايدين في الدين، بزعمهم أنّ المتحدث في هذا الشأن يناكف الدين، ويقف بالضدّ من الشعائر، ويضرب العقيدة، ويحارب المذهب، في إغفال تامّ إلى أنّ النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام هم أول من حثّ على الاقتصاد في العبادة، استنادًا إلى دعوة الدين إلى التوازن، وجعل الأمور العبادية في مقاديرها الطبيعية، وليس على حساب باقي المهام.

وقد ورد في شأن الاقتصاد في العبادة عدد من النصوص الدينية. ومن ذلك أنه ذُكِرَ عِندَ النبيِّ صلى الله عليه و آله رَجُلٌ فقيلَ لَهُ: خَيرٌ، قالوا: يا رسولَ اللّه، خَرَجَ مَعنا حاجّا فإذا نَزَلنا لَم يَزَلْ يُهَلِّلُ اللّهَ حتّى نَرتَحِلَ، فإذا ارتَحَلنا لَم يَزَلْ يَذكُرُ اللّهَ حتّى نَنزِلَ، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه و آله: فَمَن كانَ يَكفِيهِ عَلَفَ ناقَتِهِ، وصُنْعَ طَعامِهِ؟ قالوا: كُلُّنا،

فقـالَ صلـى الله عليه و آلـه: «كُلُّكُم خَيرٌ مِنهُ»[١]، ومعنـى ذلك أنه يرى أنّ الرجل المتصدي لإدارة شـؤون حياته، والمتطوع لخدمة الآخرين، هو خير وأفضل من ذلك المتفرغ للعبادة فيما ينفق عليه ويخدمه غيره.

وجـاء عن أمير المؤمنيـن علي بن أبي طالب عليه السلام فـي وصية لنجله الحسـن عليه السلام أنـه قـال: «واقتصـد يـا بنـي فـي معيشـتك، واقتصـد فـي عبادتك»[٢]، في دعوة صريحة منه إلى أن تكون العبادة متوازنة.

وفـي رواية عـن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «قال رسـول الله: إنّ هذا الديـن متيـن فأوغلوا فيه برفـق، ولا تكرهوا عبـادة الله إلى عبـاد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقى»[٣].

وفي كتاب وسائل الشيعة باب عنوانه (باب استحباب صفق الوجه بالمـاء قليـلًا عند الوضـوء وكراهة المبالغـة في الضـرب والتعمق في الوضوء) وفيه حديث عن الامام الكاظم عليه السلام: (لا تعمق في الوضوء)[٤].

المبالغة وردّات الفعل

إنّ المبالغـة فـي العبادة ربمـا قادت إلى ردود فعل معاكسـة. ومما

(١) الحسـن بن الفضل الطبرسـي. مكارم الأخلاق، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ، (بيروت مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعـات)، ص ٢٥٤. عبدالـرزاق بن همام بن نافـع الصنعاني، المصنف، ج١٠، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢٣٣، حديث ٤٨٨٥.
(٢) محمّـد بن محمد بن النعمان (الشـيخ المفيد)، الأمالي، الطبعـة الثانية ١٤١٤هـ، (قم: المطبعة الإسلامية).، ص ١٢٢.
(٣) الكافي. ج٢، ص٨٦، حديث١.
(٤) وسائل الشيعة. ج١، ص٤٣٥، حديث ٣.

وورد في هذا الشأن عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال مخاطبًا تلميذه: «.. سأضرب لك مثلًا إنّ رجلًا كان له جار وكان نصرانيًّا فدعاه إلى الإسلام وزيّنه له فأجابه فأتاه سحيرًا فقرع عليه الباب فقال له: من هذا؟ قال: أنا فلان قال: وما حاجتك؟ فقال: توضأ والبس ثوبيك ومر بنا إلى الصلاة قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصلّيا ما شاء الله ثم صلّيا الفجر ثم مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانيًّا يريد منزله، فقال له الرجل: أين تذهب؟ النهار قصير والذي بينك وبين الظهر قليل؟ قال: فجلس معه إلى أن صلّى الظهر، ثم قال: وما بين الظهر والعصر قليل فاحتبسه حتى صلّى العصر، قال. ثم قام وأراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنّ هذا آخر النهار وأقلّ من أوله فاحتبسه حتى صلّى المغرب ثم أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنّما بقيت صلاة واحدة قال: فمكث حتى صلّى العشاء الآخرة ثم تفرّقا فلما كان سحيرًا غدًا عليه فضرب عليه الباب فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟

قال: توضأ والبس ثوبيك واخرج بنا فصلّ، قال: اطلب لهذا الدين من هو أفرغ مني، وأنا إنسان مسكين وعليَّ عيال، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أدخله في شيءٍ أخرجه منه»[1].

وعلى هذا النحو ورد عدد من النصوص الحاثّة على الاقتصاد في العبادة، والتحذير من المبالغة فيها. وذلك ما يدعو إلى التزام أقصى درجات التوازن في حثّ الأبناء والشباب على الدين، فلا نحمّلهم فوق

(١) الكافي. ج٢، ص٤٤.

طاقتهم، ولا نضخم في أعينهم القضايا العبادية والشعائرية، فقد يتقبّل الشابّ ذلك في ذروة حماسه واندفاعه الديني، لكن ربما انقلب ذلك إلى ردّ فعل سلبي مع تلاشي ذلك الحماس.

فقد ورد عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: إنّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، فقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة، تكثر من صلاتها..، فقال فيما يشبه الزجر: «مَه عليْكم بما تطيقونَ فوالله لاَ يملُّ الله عزَّ وجلَّ حتَّى تملُّوا، ولَكنَّ أحبَّ الدِّينِ إليْهِ ما داومَ عليْهِ صاحبُهُ»[1].

إنّ جميع ما سبق لا يعني التقليل من شأن العبادة أو الالتزام بالشعائر الدينية. وإنّما المقصود منه لفت النظر إلى أنّ للعبادات أهدافًا في الحياة، ينبغي ألّا نغفل عنها، وأن يكون هناك توازن في التوجه نحو هذه العبادات والشعائر، حتى لا تكون على حساب المهام الأخرى، من العمل وطلب الرزق، وخدمة الناس، والبحث العلمي، وإعمار الأرض، فهذه كلّها مصادر للأجر والثواب الإلهي، تضاهي الثواب المتأتي من سائر العبادات. فلا بدّ أن تتحلّى المجتمعات بالتوازن في الفهم الديني من جهة، والسلوك العملي من جهة أخرى، فقد جاء عن أبي عبد الله جعفر الصادق ﷺ أنه قال: «اجْتَهَدْتُ فِي الْعِبَادَةِ وَأَنَا شَابٌّ، فَقَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ، دُونَ مَا أَرَاكَ تَصْنَعُ؛ فَإِنَّ اللّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إِذَا

(١) صحيح البخاري. كتاب الإيمان، باب أحبّ الدين إلى الله عزّ وجلّ أدومه، ج١، ص١٨، حديث ٤٣.

أَحَبَّ عَبْداً رَضِيَ عَنْهُ بِالْيَسِيرِ»[١].

٣ / التشدد تجاه الناس

يودّ الإنسان المؤمن أن يكون الناس متفقين معه في معتقداته وتوجهاته، والطريق الصحيح إلى ذلك أن ينجح في إقناعهم واستقطابهم، وأن يكون جاذبًا لهم بأخلاقه وتعامله، لكن بعض المتديّنين تمتلكه حالة الانفعال والغضب تجاه من لا يوافقونه في دينه أو مذهبه أو مسلكه، ويندفع للانتقام منهم والإساءة لهم، وهذا ما لا يجيزه الدين، ولا يقبله العقل، ويؤدي إلى نفور الناس من الدين.

إنّ حسن التعامل مع الناس ليس مشروطًا باستجابتهم للدين، يقول تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾.

ونقرأ في السيرة النبوية كيف كان رسول الله ﷺ في غاية الرفق واللين مع الجاهلين والمخطئين والعاصين.

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال ﷺ: (ويحك). قال: وقعت على أهلي في رمضان، قال ﷺ: (أعتق رقبة). قال: ما أجدها، قال ﷺ: (فصم شهرين متتابعين). قال: لا أستطيع،

(١) الكافي. ج٢، ص٨٧، حديث٥.

قال ﷺ: (فأطعم ستين مسكينًا). قال: ما أجد، فأتي بعرق، فقال ﷺ: (خذه فتصدق به). فقال: يا رسول الله، أعلى غير أهلي، فوالذي نفسي بيده، ما بين طنبي المدينة أحوج مني، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، قال ﷺ: (خذه)[١].

وجاء في سنن ابن ماجه أن أَعْرَابِيًّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِمُحَمَّدٍ وَلَا تَغْفِرْ لِأَحَدٍ مَعَنَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: لَقَدْ احْتَظَرْتَ وَاسِعًا ثُمَّ وَلَّى، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَشَجَ يَبُولُ، فَقَالَ: الْأَعْرَابِيُّ بَعْدَ أَنْ فَقِهَ، فَقَامَ إِلَيَّ بِأَبِي وَأُمِّي، فَلَمْ يُؤَنِّبْ، وَلَمْ يَسُبَّ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ لَا يُبَالُ فِيهِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلِلصَّلَاةِ، ثُمَّ أَمَرَ بِسَجْلٍ مِنْ مَاءٍ، فَأُفْرِغَ عَلَى بَوْلِهِ[٢].

وري أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، ج٤، ص١٢٦، حديث ٦١٦٤.

(٢) محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه. سنن ابن ماجه، كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ الْأَرْضِ يُصِيبُهَا الْبَوْلُ، كَيْفَ تُغْسَلُ، الطبعة الأولى١٤١٩هـ، (بيروت: دار المعرفة)، ص١٨٥، حديث ٥٢٩.

(٣) صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، حديث ٥٧٩٩.

البواعث والنتائج

حينما ندرس ظاهرة التشدد والتزمّت في اتّباع الأديان الإلهية، فإننا يمكن أن نرصد عددًا من الأسباب والبواعث، ومن أهمها ما يلي:

أولًا: غياب القيم والاهتمامات الكبرى التي جاء من أجلها الدين، كإقامة العدل وهي المهمة الأساس التي نزلت من أجلها الرسالات الإلهية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وكمهمّة إعمار الأرض واستثمار خيرات الكون، يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وكتحصيل المعرفة واستكشاف أسرار الكون، يقول تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وكحفظ حقوق الناس واحترامها، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

وحينما تغيب مثل هذه القيم والاهتمامات الكبرى، ويضعف حضورها في ساحة حياة المجتمع، يحصل التعويض عنها بالتعمق

في جزئيات المسائل العقدية النظرية، والاستغراق في الطقوس والممارسات العبادية الشعائرية، والمبالغة في التحريمات والاحتياطات.

ومن أسوأ النتائج المترتبة على ذلك، تخلف المجتمعات المنتمية إلى الدين عن ركب التطور العلمي، والتقدم الحضاري، وانحدار واقعهم الاجتماعي والسياسي إلى أسفل الدرجات، بينما تشق الأمم الأخرى طريقها نحو التقدم والرقي، ورفاهية أبنائها.

فبالرغم من كون العبادات، فرائض ونوافل، تمثل جزءًا لا يتجزأ من الدين، إلّا أنّ هناك مشكلة تعتري المجتمعات الدينية حيال أمر العبادات. وهي إغفال الهدف من العبادات، فهناك مجتمعات تمتثل للعبادة بصورة شكلية، إلّا أنّها تغفل عن الهدف من وراء تلك العبادة، ومن ذلك على سبيل المثال، ما جاء في القرآن الكريم من أمر الصلاة، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٥]، ذلك أنّ مقتضى إقامة الصلاة وفقًا للآية الكريمة، الانتهاء عن فعل الفحشاء والمنكر، لذلك لا يغدو للصلاة قيمة، متى ما التزم الإنسان بها ممارسة شكلية، وأغفل الهدف الذي شرعت من أجله.

من هنا تأتي إشارة الإمام الصادق عليه السلام إلى ضرورة انعكاس العبادة على سلوك الإنسان، فإن لم يتحقق ذلك، فلا قيمة لتلك العبادة، قال عليه السلام: «لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنّ الرجل ربما لهج

بالصلاة والصوم، حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»[١]، هكذا تؤكد النصوص الدينية أنّ للعبادات هدفًا ينبغي أن يتحقق من أدائها والالتزام بها، ودون ذلك لا قيمة لها.

ونلاحظ وجود وفرة في إقامة العبادات لدى المجتمعات الدينية، وسط غياب للأهداف المرجوة منها. ويتضح ذلك من خلال كثرة المساجد، وإقامة الصلوات، وأداء الصيام، والإقبال على الحج والزيارة، إلّا أنّه في مقابل ذلك، لا أثر واضحًا للأهداف المرجوة من تلك العبادات، مما يشير إلى وجود خلل متمثل في أنّ الوسيلة لا توصل إلى الهدف الذي شرّعت من أجله.

وقد نشر باحثون في جامعة جورج واشنطن مؤخّرًا بحثًا مهمًّا، شارك فيه أكاديميون مسلمون يعيشون في الولايات المتحدة، وقد درس هؤلاء الباحثون دساتير أكثر من ٢١٨ دولة من دول العالم، على ضوء أسس الحكم الرشيد، وإدارة الاقتصاد، وتعاملاتها مع مواطنيها، وقارنوا محصلة ذلك مع ١١٢ مبدأً إسلاميًّا مستمدًّا من الكتاب والسنة، في الاقتصاد والحياة العامة، وأبرزها العدالة وتوزيع الثروة، والحريات العامة، وكان الغرض من ذلك، معرفة أفضل الدول التزامًا بهذه المبادئ الإسلامية، فتوصل الباحثون إلى نتائج مذهلة، وأبرزها أنّ الدول الإسلامية لم تحتل المراتب الأولى في الالتزام بمبادئ القرآن الكريم، سيّما في مجالات العدالة والحريات وإقامة الحياة

(١) الكافي، ج٢، ص١٠٤، حديث٢.

الطيبة، مع أنّها مبادئ مرتبطة بصميم العقيدة الإسلامية، في مقابل ذلك وجد هؤلاء الباحثون أنّ دولًا غير إسلامية، مثل إيرلندا والدنمارك ولوكسمبورغ، جاءت جميعها على رأس قائمة الدول الأكثر التزامًا بالمبادئ الإسلامية، في مجالات العدالة والحريات وإقامة الحياة الطيبة!.

و(احتلت المراتب الأولى الـ ٢١ دول غير إسلامية، وجاءت ماليزيا في المرتبة ٢٢ كأول دولة إسلامية في القائمة!، في حين احتلت اسرائيل المرتبة ٢٧ متقدمة على جميع الدول الإسلامية الأخرى، وجاءت الكويت في المرتبة ٥٠، وتونس في المرتبة ٧٢، والسعودية في المرتبة ٩١، فيما جاءت مصر في المرتبة ١٢٨، والمغرب ١٣٠)[1]. وهذا ما ينبغي أن يدعونا لإجراء مراجعة جدّية حول تطبيقات المبادئ الإسلامية في مجتمعاتنا، ومدى تحقق أهدافها وانعكاسها على أنماط وسبل حياتنا. إنّ هدف العبادات تركيز القيم، ولا ينبغي للمتديّنين أن يكتفوا بأداء العبادات ويغفلوا عن القيم والأهداف التي شرّعت من أجلها.

ثانيًا: تكوّن طبقة في المجتمع الديني تحترف التزمّت والتشدّد، وتعمل على نشره والتبشير به، لخطأٍ في فهم المقاصد الدينية، أو لمصلحة ينشدونها من خلال تأكيد حضورهم عبر هذا التوجّه، الذي يجد له روّادًا ومؤيّدين، بدافع ديني ساذج.

(١) http://www.alarabyanews.com/41804

وعـن وجود هـذه الطبقة في الديانات السـابقة يقـول تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ﴾[سورة التوبة، الآية: ٣٤].

وتشـير آيـة أخرى في القـرآن الكريم إلـى قيام هـذه الطبقة بوضع إضافات مـن عنديـاتهم، ونسـبتها إلى الدين، لتحقيـق بعض المصالح والمكاسـب، يقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِيـنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَـابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُـونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّـهِ لِيَشْـتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيـلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[سورة البقرة، الآية ٧٩].

إنّ بعـض الجهات الدينية تبالغ في التأكيد على تفاصيل المسـائل العبادية، والبرامج الشـعائرية والطقوسية، وكأنها أصل الدين ومحوره ومقصـده وغايتـه، بينما تتجاهل القيم الأساسـية من الديـن، والقضايا الاجتماعية الملحّة، والأخلاق السلوكية المهمة.

وقد اتسـعت عند هذه الجهات مسـاحة الواجبـات والاحتياطات والمسـتحبات فـي القضايـا العباديـة، كمـا اتسـعت مسـاحة التحريم والحظـر في مجـالات الحيـاة، حتى أصبحـت حيـاة المتدينين ضمن هـذه التوجهات غابة من التعقيدات والعوائق والموانع عن الاسـتمتاع بمباهج الحياة، مع أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِـي أَخْرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيـنَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨٧].

تضخم الكبائر

ونشير إلى ما رصده أحد الباحثين حول اتساع رقعة الذنوب الكبيرة، وتصاعد الأرقام في قائمتها عند الفقهاء المسلمين مع مرور الزمن.

يقول: استعرضت عامة كلام العلماء وكتبهم في الكبائر، منذ جيل الصحابة، إلى البرديجي (ت٣٠١هـ) صاحب أول كتاب مصنف في الكبائر يصل إلينا، فقد بلغ عدد الكبائر عنده ثلاث عشرة كبيرة فقط، وزاد عليه الضياء المقدسي (ت٦٤٣هـ) في تذييله عليه، ثلاثًا فقط، ... وكذلك الحال مع ابن جرير الطبري (الذي حصر الكبائر في تسع كبائر فقط)، ... أبو زكريا بن النحاس (ت٨١٤هـ)، في كتابه «تنبيه الغافلين»... فقد بلغت عنده (١٧١) كبيرة.

وقبله ابن حجر المكي الهيثمي (ت٩٤٧هـ)، في كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، حيث بلغت عنده (٤٦٦) كبيرة! حتى كادت أن تكون عامة المعاصي عنده كبائر[١].

ثالثًا: نشْأةُ ظروف وأجواء تدفع إلى حالة من المزايدات في الدين،

(١) الشريف حاتم بن عارف العوني، مجلة الفيصل، العددان ٤٧٧ - ٤٧٨ شوال وذو القعدة ١٤٣٧هـ، ص١٥-١٦.

بسـبب وجود تحدٍّ للهوية الدينية، أو صراع وتنافس بين أجنحة الحالة الدينية، حيث قد يدفع الشـعور بالتحدّي للهوية إلى المبالغة فيها، كما قـد يؤدي الصـراع والتنافس بين الجهات الدينية، إلى سـعي كلّ طرف لإظهار نفسـه أنه أكثر التزامًا بالعقيدة ودفاعًا عنها، بينما يتّهم الأطراف الأخـرى المنافسـة بالميوعة والذوبـان وتقديم التنازلات والمسـاومة على المبادئ.

نحن مدعوون وخاصة في هذا العصر إلى مراجعة خطابنا الديني، فشـبابنا يتعـرض إلى هجـوم من توجهـات الإلحاد والانحـراف، وقد يدفعهم هذا التشدد في الخطاب الديني إلى النفور من الدين والتدين.

مشروعية الاختلاف في الرأي

ورد فــي رواية عن الإمــام الصادق عليه السلام أنه قــال: «مَا أَنْتُمْ وَالْبَرَاءَةَ يَبْرَأُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْــضٍ، وَبَعْضُهُمْ أَكْثَــرُ صَلَاةً مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهُمْ أَنْفَذُ بَصَراً مِنْ بَعْضٍ، وَهِيَ الدَّرَجَاتُ»[1].

(١) الكافي، ج٢، ص٤٥، حديث٤.

التفكير ينتج اختلافًا

ميـزة الإنسـان أنّ اللـه تعالـى منحـه عقلًا يفكـر بـه، والتفكير هو عمليـات النشـاط العقلي التي يقـوم بها الفرد من أجـل الحصول على حلول لمشكلة ما، أو اتخاذ قرار، أو البحث عن معنى، أو الوصول إلى هدف معيّن.

والتفكيـر لا يحـدث فـي فـراغ وبـلا هـدف، لذلـك تتأثـر نتائجه بالمعلومات المتوفرة، والخبرة المتراكمة، والأجواء المحيطة، والزاوية التي ينظر اليها، والغاية التي يتوخّاها.

والـرأي في أيّ مسـألة أو قضيـة هو نتيجة التفكيـر فيها، لذلك من الطبيعي ألّا تتطابق الآراء حول المسائل والقضايا؛ لاختلاف الخلفيات والأدوات وزوايا النظر والغايات.

فـإذا ما فكر اثنان في قضية واحدة، لكن أحدهما يمتلك معلومات حول موضوعها أكثر من الآخر، فقد تختلف نتيجة تفكيرهما، وكذلك

لـو كانت تجربة أحدهما وخبرته أكثـر، أو نظر إلى الموضوع من زاوية غيـر الزاويـة التي نظر إليها صاحبـه، فإنّ النتيجة قد تكـون مختلفة بين تفكيريهما.

إن البعـض يزعجـه اختـلاف الآراء، ويتمنّى لو أنّ أبنـاء المجتمع يكونـون نسـخة واحدة فـي افكارهـم وآرائهـم، لكن الاختـلاف نتاج طبيعـي لعمليـة التفكيـر، وإذا أردنا من النـاس ألّا يختلفوا فـي الرأي، فعلينا أن نصرفهم أو نمنعهم عن التفكير، بأن نحظر عليهم التفكير، أو نقنعهم بالاعتماد على من يفكر عنهم.

وإذا تنازل الإنسـان عن التفكير فقد تخلى عن أهم ميزة لإنسانيته، ويكون حينئذٍ أسوأ من سائر الحيوانات؛ لأنها لا تفكر لعدم أهليتها، أما هو فلتجميده قدرة يمتلكها، لذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَـرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾».

إنّ المشـكلة الأسـاس ـ حسـب الآية الكريمة ـ ليسـت فـي افتقاد السـمع والنطق، فالحيوانات تمتلك السمع، وبعضها قد تمتلك القدرة علـى تقليـد كلام الإنسـان كالببغاوات، لكن المشـكلة أنهـا لا تمتلك القدرة العقلية.

إنّ الإنسـان حتى لو فقد سـمعه، أو قدرته على النطق، يسـتطيع أن يعيش إنسـانيته، باستخدام عقله، واكتشاف وسـائل بديلة، والله تعالى يعوضه عما فقد، ويستطيع أن يصبح أفضل ممن يسمعون وينطقون من

أقرانه، بنشاطه الفكري، وأدائه العملي، وسلوكه الأخلاقي.

وإذا كان التفكير يؤدي إلى اختلاف الرأي، فإن ذلك ليس أمرًا سلبيًا سيئًا، بل هو أمر مفيد، لأنه يثري المعرفة، ويوصل إلى الرأي الأفضل، ويبين ثغرات الآراء، وهو ما يدعو إليه الدين ويؤكد عليه، والله تعالى يعلم أنّ التفكير يؤدي إلى الاختلاف، لكنه سبحانه يدعو إلى التفكير والتفكر، وفي القرآن الكريم عشرات الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وروي عن علي عليه السلام: «فَضْلُ فِكْر وَتَفَهُّم، أنْجَعُ مِنْ فَضْلِ تَكْرار وَدِراسَة»[1].

وعن الإمام الحسن عليه السلام: «أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكر، فإنّ التفكر أبو كلّ خير وأمه»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «فِكرُ ساعَةٍ خَيرٌ مِن عِبادَةِ سَنَةٍ»[3].

فالدين دعوة إلى التفكير وليس إلى التبعية والجمود.

---

(١) عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٧٦، حكمة ٤٦.

(٢) ورّام بن أبي فراس المالكي. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، طبعه طهران سنة ١٣٠٩هـ، ج١، ص ٥٢.

(٣) بحار الأنوار. ج ٧١، ص ٣٢٦، حديث ٢٠.

التفكير لفهم الدين

وفي المجال الديني، فقد فرض الله تعالى على الإنسان التفكير والاجتهاد في فهم دينه، والدين له بُعدان: بعد عقدي، وبعد عملي، ففي الجانب العقدي لا بُدّ أن يكون الانسان مجتهدًا مستقلًّا بالتفكير فيه، فيؤمن بأصول الدين عن دليل وبرهان وليس عن تقليد واتّباع.

أما تفاصيل هذه المعتقدات وسائر المعتقدات الفرعية، فإنها ليست واجبة المعرفة في الأصل، فإذا كانت لديه فرصة أن يبحث ليكوّن رأيا فيها، وامتلك أدوات البحث فهو جيّد، وإن اطمأنّ إلى رأي خبير فيها، أو إلى أيّ مصدر من مصادر الاطمئنان السليمة فيمكنه ذلك، ويجب عليه الاعتقاد بما ثبت لديه، واطمأنّ بنسبته إلى الدين. وإلّا فليدعها جانبًا فإنه ليس مسؤولًا عنها أمام الله، ولا يجب عليه تحصيل العلم بها.

لكن المشكلة تأتي في المسائل الدينية العملية التي اصطلح على تسميتها بالمسائل الفقهية، وهي كثيرة متشعبة، وبعضها محلّ ابتلاء وحاجة للإنسان، ويحتاج إدراكها وفهمها إلى صرف جهد كبير لا يتفرغ له كلّ شخص، وهنا جاء التوجيه للتخصص، بتفرغ شريحة من أبناء الأمة لدراسة النص الديني، ضمن ما أطلق عليه عملية الاجتهاد، وهو فرض كفاية على الأمة، وإن كان هناك من العلماء من رآه فرض عين، كما قال الشهيد الأول في الذكرى: (وعليه ـ جواز التقليد ـ أكثر الإمامية، وخالف فيه بعض قدمائهم وفقهاء حلب ـ رحمة الله عليهم ـ

فأوجبوا على العوام الاستدلال)[١].

وقد كانت حلب مركزًا علميًّا للشيعة الإمامية في القرن السادس الهجري، حيث بعث السيد المرتضى من بغداد تلميذه الشيخ حمزة الدَّيلميّ المعروف بـ (سَلاّر)، والشيخ أبا صلاح الحلبي، ومن أبرز علمائها المعروفين السيد أبو المكارم حمزة بن زهرة توفي ٥٨٥هـ، وحسب المنقول: فإنّ علماء هذه المدرسة كانوا يوجبون الاجتهاد في معرفة واستنباط المسائل الفقهية على كلّ مكلف، فهو فرض عين في رأيهم.

لكن الرأي السائد عند علماء المسلمين سنة وشيعة، هو رجوع الناس إلى أهل الاختصاص في فهم الشريعة، وهم الفقهاء المجتهدون، كما هو شأن الإنسان في الرجوع إلى المتخصص في مختلف مجالات الحياة، إذ لا يتمكن الإنسان من الإحاطة بكلّ المجالات.

وبفتح باب الاجتهاد ينفتح باب الاختلاف في الرأي على مصراعيه، وهي نتيجة طبيعية، فلا يمكن أن تأمر بالاجتهاد ثم تفرض الالتزام برأي معيّن.

(١) محمد بن جمال الدين مكي العاملي الجزيني. ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (قم: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ج ١، ص ٤١.

احتمالات الخطأ والصواب

حينما تختلف الآراء حول أيّ مسألة من المسائل، فلا يمكن عقلًا أن تكون الآراء المختلفة في المسألة الواحدة كلها صائبة، فقد تكون كلّها خطأ، وهناك رأي خارجها هو الصواب، وقد يكون أحدها صوابًا فقط، وقد يكون الصواب والخطأ في كلٍّ منها نسبيًّا.

لكن علماء المسلمين اختلفوا في انطباق هذا الأمر على الاختلاف في المسألة الدينية.

فإذا كان هناك نصّ صريح في المسألة، فلا اختلاف أنه يمثل حكم الله الواقعي.

أما إذا لم يرد في المسألة نصّ صريح، أو كانت النصوص متعارضة، أو وردت مجملة تحتمل وجوها شتى، فهنا يقع الاختلاف في آراء المجتهدين، فهل فيها خطأ وصواب؟

١ / رأي الأشاعرة

ذهب الأشـاعرة (وهم أكثرية أهل السـنة) إلى أنّ الله لم يجعل في المسـألة التي لا نصّ فيها حكمًـا واقعيًّا، وإنما حكمه ما يراه المجتهد، وليس لله تعالى فيها حكم مخالف لما يراه أيّ مجتهد، فالمجتهد دائمًا على صواب حسب رأيهم، لذلك يطلق عليهم (المصوّبة)، فإذا اختلف المجتهـدون فـي حكم الغناء مثـلًا، بين الجواز، والحرمـة، والكراهة، فكلهـا أحكام الله تعالـى، وكلها صواب؛ لأنه لا يوجد واقع تشـريعي سابق على الظنّ الاجتهادي.

٢ / رأي المعتزلة

يـرى المعتزلـة ـ كما في بعض التقاريـر لرأيهم ـ إنّ للـه تعالى في المسـألة حكمًـا، لكنه ينقلب فـي حالة عدم اكتشـاف المجتهد له، إلى أن يوافـق رأي المجتهـد، أو أنّ الحكـم وضعـه الله متنوعًـا بتنوع آراء المجتهدين على نحو القضية الحقيقية، فهم مصوبة أيضًا كالأشاعرة.

وهناك تقرير آخر لرأي المعتزلة، وهو: أنّ الله يعلم بما سـيتوصل له العلماء من آراء، وقد اعتمدها ـ مع اختلافها ـ كرأي شرعي واقعي.

٣ / رأي الشيعة

أمـا الشـيعة فيـرون أنّ لله في كلّ واقعـة حكمًا، يُـدرك بالنص، أو بالقواعد والمبادئ العامة في الشريعة، لكن المجتهد قد يصيب الحكم وقد يخطئه، وحين تختلف الآراء، فأحدها صواب فقط، وسـائر الآراء

خطأ، لذلك أطلق عليهم (المخطِّئة).

لكـن ما يتفق عليه المسـلمون أنّ المجتهد معـذور إذا أخطأ، ومن أخـذ برأيه معـذور، للحديث المشـهور بين المسـلمين: أنّ من اجتهد فأصاب فله أجران، وإن أخطأ له أجر واحد على ما بذل من جهد.

من هنا نجد أن معظم المسـائل الدينية، عقدية وفقهية، حصل فيها نقـاش وخلاف، وتعددت حولها وجهات النظـر والاجتهاد، حتى قال السيد محمد باقر الصدر:

(إنّ القليل من أحكام الشريعة الإسلامية هو الذي يحتفظ بوضوحه وضرورتـه، وصفته القطعيـة ... وقد لا تتجاوز الفئـة التي تتمتع بصفة قطعية من أحكام الشريعة الخمسة في المئة من مجموع الأحكام)[1].

ومعنـى ذلـك أنّ خمسـة وتسـعين فـي المئة مـن الأحـكام محلّ للاجتهاد والنقاش.

وذكر مثل ذلك المرجع الشـيخ إسـحاق الفياض بأنّ (الذي يتمتع بطابع ضروري لا تتجاوز نسبته إلى مجموع الأحكام الشرعية عن ستة في المئة)[2].

لكـن بعـض المتديّنين يتصـوّرون أنّ ما يؤمنون به مـن أفكار، وما

(١) السـيد محمـد باقر الصدر. اقتصادنـا، ١٩٩١م، (بيروت: دار التعـارف للمطبوعات)، ص٣٩٣-٣٩٤.

(٢) الشيخ محمد إسحاق الفياض. المسائل المستحدثة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، (الكويت: مؤسسة المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافية الخيرية)، ص٧.

يعرفونه من أحكام، وما يمارسونه من طقوس وشعائر، هي حقائق دينية صلبة، لا تقبل المسّ والتغيير، ولا يصح مناقشة شيءٍ منها، ويرون أنّ من يخالفهم الرأي في شيء منها، فهو منحرف مبتدع ضالّ مضلّ، وقد يخرجونه من الدين أو المذهب.

وهذا نابع من سطحية التفكير، وروح التعصّب، بينما يؤكّد العلماء أهميّة استمرار نهج الاجتهاد في الدين، وإمكانية البحث والنظر في مختلف قضاياه ومسائله العقدية والفقهية.

مـن الطبيعي أن يعتقد كلّ صاحـب رأي أنّ رأيه هو الصواب، وأنّ الرأي الآخر خطأ؛ لأنه لو لم يعتقد بصوابية رأيه لما ذهب إليه.

ولكـن كيف يكـون التعامل مع الـرأي الذي نعتبره رأيـاً خطأ ومع صاحبه؟

فـي المجتمعات المتقدمة تجـاوزوا هذه المشـكلة تقريبًا، بعد أن عاشـوا قرونًا من الاسـتبداد، وقمع الكنيسـة، التي كانت تفرض آراءها على الناس، حتى في قضايا الطبيعة والحياة، فأحرقت وقتلت وشردت وأذلّـت آلاف العلماء، لتبنيهـم آراء مخالفة، لكنّ الأمر تغيّر لديهم بعد جهـود كبيـرة، بذلت في عصـر التنوير، الذي أسـس لعصـر جديد في أوروبا وفي العالم، وصار الناس في تلك البلدان يتمتعون بحرية التعبير عـن آرائهـم، في مختلف المجـالات، عدا بعض الاسـتثناءات لجهود لوبيـات الضغط، كما هو الحال في الموقف من (الهولوكسـت) مثلًا،

وهي ما تعرض له اليهود من حرق وتنكيل في عهد النازيين.

وبحسب دراسة نشرتها أواخر عام ٢٠١٢ منظمة «مشروع منع الإبادة الجماعية»، (دولية غير حكومية)، ومقرها كندا، فإنّ الدول التي تحظر إنكار «الهولوكوست» صراحة بنص قانوني، عددها إحدى عشرة دولة.

وشددت العقوبة في ألمانيا على من عبّر عن رأي ينكر أو يشكك في احداث (الهولوكست) إلى الحبس خمس سنوات كحدٍّ أقصى، والغرامة كحدٍّ أدنى للعقوبة.

وفي فرنسا عوقب الفيلسوف والكاتب الفرنسي (روجيه جارودي) بتهمة معاداة السامية والتشكيك في محرقة اليهود في كتابه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل»، و في سنة ١٩٩٨م صدر ضده حكم بالسجن مع إيقاف التنفيذ، إضافة إلى تغريمه ٢٤٠ ألف فرنك فرنسي.

وعوقب جان ماري لوبان في ١٩٩٩، بغرامة توازي ٦٠٠٠ يورو، لقوله إنّ المحارق النازية لليهود «مجرّد تفصيلة تاريخية».

ويعاقب القانون الجنائي النمساوي إنكار المحرقة، أو تبرير أفعال النازية بالسجن لمدة تصل في أقصاها إلى ١٠ سنوات.

وقد عوقب المؤرخ النمساوي ديفيد إرفينج لإنكاره الهولوكوست بالسجن لـ ٣ سنوات، في ٢٠٠٦.

وهذا الأمر واحد من الاستثناءات الغريبة لحرية التعبير عن الرأي

فـي المجتمعـات الغربية، لكن الحـال العام قائم علـى الحرية الفكرية والإعلامية في المجال الديني والعلمي والسياسي.

وفـي مجتمعاتنـا لا نزال نعيش مشـكلة التعامل مع الـرأي الآخر، حتـى داخل المذهب الواحد، والجماعة الواحدة؛ لأنّ التفكير السـائد هو حاكمية الرأي الواحد، ورفض تعدّد الآراء.

بالطبع لا مشكلة في تبنّي رأي والدفاع عن صوابيته، وتخطئة الرأي الآخر، لكنّ المشـكلة تكمن في قمع الرأي الآخر، وسلبه المشروعية، فرأيـك اجتهـاد، والرأي الآخـر كذلك، وهل تحتكر أنـت حقّ التفكير والاجتهاد؟!

وهل مشروع لك وحدك إعلان رأيك والتعبير عنه؟!

نهج التعامل مع الآخر

إنّ رفض الاعتراف بمشـروعية الرأي الآخر، والسعي لفرض رأي واحد على الناس، هو الأرضية الخصبة للتطرف، ونموّ توجهات القمع والعنـف، وهـو ما أوصل سـاحتنا الإسـلامية لتفريخ حـركات العنف والإرهاب، ونحن بحاجة ماسّة لبث ثقافة التسامح، والتعامل مع الرأي الآخر، وذلك عبر البرامج التالية:

١. الانفتـاح علـى الـرأي الآخـر وتفهمـه، وليـس سـدّ الأسـماع والأذهان أمامـه، فتلك منهجية الجاهليين حسـبما حكى عنهم القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا

الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، بينما يصف القرآن الكريم منهج المؤمنين الواعين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

إنّ بعض الناس يتحمّسون ضدّ بعض الأفكار والمقولات، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الاطّلاع عليها، فيحاكمونها، ويصدرون الحكم على أصحابها، دون موضوعية وإنصاف، بل

ربما يكتفي بعضهم بقراءة (المانشيت) أحيانًا ـ أي عنوان الخبر ـ حيث تختار وسائل الإعلام مانشيتات مثيرة لجذب الاهتمام، وقد لا تكون مطابقة مع المنقول، وقد يُنقل الكلام مبتورًا عن سياقه.

٢. محاورة الطرف الآخر، ومطالبته بأدلته ومبرراته، لعلك تفهمه أكثر، أو تساعده على اكتشاف الخطأ في فكرته، فلماذا يغيب التلاقي والحوار بين ذوي الآراء والأفكار؟

٣. حين تقتنع بخطأ الرأي الآخر وبطلانه، من حقك أن تطرح رأيك، وأن تسلّط الأضواء على مكمن الخطأ في الرأي الآخر، ولكن لا يصح لك الإساءة لصاحب الرأي.

إنّ رفض أيّ فكرة أو رأي لا ينبغي أن يقود إلى نصب العداوة لصاحب ذلك الرأي، فلو أطلق إنسان رأيًا أو فكرة خطأ وفق تقويمك، فمن حقّك أن ترفض ذلك الرأي، لكن ذلك لا يعني أن تعادي صاحب الرأي، أو تتبنّى موقفًا عنيفًا ضدّ مطلق الفكرة، ومن الضروري هنا

التفكيك بين الفكرة وصاحب الفكرة، فقد يكون رأيه خطأً، وقد يكون صوابًا، ولربما غيّر رأيه فيما بعد ليكون مطابقًا لرأيك، أو ربما غيّرت رأيك في مستقبل الأيام ووافقته الرأي.

وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نصنف الناس إلى صنفين:

الصنف الأول: ليس بمقدوره التفكيك بين الرأي وصاحبه، ولربما قطع علاقته مع صديقه لمجرد الاختلاف معه في الرأي إزاء قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل، إنّ كلّ أحدٍ له كامل الحقّ في أن يقبل أو يرفض رأيًا أو فكرة ما، تبعًا لمعاييره الخاصة، لكن ذلك لا ينبغي أن يترتب عليه اتخاذ مواقف حدّية من أصحاب الآراء الأخرى، فهؤلاء بشر لهم حقوقهم وكرامتهم.

الصنف الثاني: يحترم انسانية الطرف الآخر، ويؤمن أنّ بين البشر مشتركات مهما اختلفوا في الرأي إزاء هذه المفردة، أو تلك القضية.

ونقرأ في سيرة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، كيف كانوا يتعاملون مع أصحاب الأديان والتوجهات الأخرى بأروع الأخلاق والآداب، مع تبنّيهم للحق، وكشفهم للباطل، ويكفي أن نستشهد بتعامل الإمام الصادق عليه السلام مع من عرفوا بالزنادقة، كأبي شاكر الديصاني، وعبدالله

بـن المقفع، وعبدالكريم بن أبي العوجاء، والذين كانوا يظهرون أفكارًا إلحادية، وتشـكيكية في الدين، والنبي ﷺ، والقـرآن، حتى توافقوا مرة على نقض القرآن ومعارضته.

ومع ذلك كان الإمام الصادق يستقبلهم في منزله، ويجلس للحوار معهم في المسـجد الحرام، كما تفيد الروايات التي نقلها الشيخ المفيد في الإرشـاد، وقد جاء فـي مقدمة توحيد المفضـل، أنّ المفضل أغلظ الـكلام ذات يـوم على بـن أبي العوجاء، بعد ما سـمعه يتكلـم في نفي الصانـع والمدبر، وهو في جوار قبر النبي ﷺ فقال له ابن أبي العوجاء: يـا هـذا، إن كُنتَ مِن أهلِ الـكَلامِ كَلَّمناكَ ؛ فَإِن ثَبَتَ لَـكَ حُجَّةٌ تَبِعناكَ، وإن لَم تَكُن مِنهُم فَلا كَلامَ لَكَ، وإن كُنتَ مِن أصحابِ جَعفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ الصّـادِقِ فَما هكَذا يُخاطِبُنا، ولا بِمِثلِ دَليلِكَ يُجادِلُنا ! ولَقَد سَـمِعَ مِن كَلامِنا أكثَرَ مِمّا سَمِعتَ، فَما أفحَشَ في خِطابِنا، ولا تَعَدّى في جَوابِنا . وإنَّهُ لَلحَليمُ الرَّزينُ، العاقِلُ الرَّصينُ ؛ لا يَعتَريهِ خُرقٌ ولا طَيشٌ ولا نُزقٌ . ويَسـمَعُ كَلامَنا، ويُصغي إلَينا، ويَسـتَعرِفُ حُجَّتَنا، حَتَّى اسـتَفرَغنا ما عِندَنا، وظَنَنّا أنّا قَد قَطَعناهُ أدحَضَ حُجَّتَنا بِكَلامٍ يَسيرٍ، وخِطابٍ قَصيرٍ، يُلزِمُنـا بِهِ الحُجَّةَ، ويَقطَعُ العُذرَ، ولا نَسـتَطيعُ لِجَوابِهِ رَدّا، فَإِن كُنتَ مِن أصحابِهِ فَخاطِبنا بِمِثلِ خِطابِهِ)[1].

علينـا أن يسـتوعب بعضنـا بعضًـا، وأن نحتـرم رموزنـا ومفكرينا ومثقفينـا، نردّ ما نعتبره رأيًـا خطأً بالرأي والعلـم والمعرفة، وهل تظنّ

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص ٥٨.

أنك إذا اتهمت وسببت صاحب الرأي الآخر ستقضي على رأيه؟ كلّا. إن ما يواجه رأيه هو الرأي الأقوى، وكما ورد في (الكافي) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فِي أُمَّتِي، فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ»[١].

وإذا كان الإمام الصادق يستقبل الملاحدة والزنادقة ويقابلهم بأخلاق راقية، فلماذا تحارب بعض أبناء مجتمعك؛ لأنهم يختلفون معك في بعض الآراء؟ إن الرأي ما دام ضمن دائرة الاجتهاد لا يسقط عدالة الطرف الآخر، إذا كان أصوليًّا، أو أخباريًّا، أو شيخيًّا، أو يقلد هذا المرجع أو ذاك، أو يعتقد بهذه الفكرة أو تلك.

لماذا نحن متشنّجون ومتوترون في علاقاتنا الداخلية؟

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: «مَا أَنْتُمْ وَالْبَرَاءَةَ يَبْرَأُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهُمْ أَكْثَرُ صَلَاةً مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهُمْ أَنْفَذُ بَصَراً مِنْ بَعْضٍ، وَهِيَ الدَّرَجَاتُ».[٢]

(١) الكافي، ج١، ص ٥٤، حديث٢.
(٢) الكافي، ج٢، ص٤٥، حديث٤.

تهميش العقل في الحالة الدينية

أورد الكليني في حديث موثق بسنده عن علي بن أسباط عن الحسن ابن الجهم، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَاEl، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَهُ أَصْحَابُنَا وَذُكِرَ الْعَقْلُ، قَالَ: فَقَالَ: «لَا يُعْبَأُ بِأَهْلِ الدِّينِ مِمَّنْ لَاعَقْلَ لَهُ». قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ مِمَّنْ يَصِفُ هَذَا الْأَمْرَ قَوْماً لَا بَأْسَ بِهِمْ عِنْدَنَا، وَلَيْسَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْعُقُولُ؟

فَقَالَ: «لَيْسَ هؤُلَاءِ مِمَّنْ خَاطَبَ اللهُ، إِنَّ اللهَ تَعَالى خَلَقَ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، وَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، مَا خَلَقْتُ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْكَ ـ أَوْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ـ بِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي»[1].

(١) الكافي. ج١، ص ٢٧، حديث٣٢.

التلازم بين الدين والعقل

تدور في أوساط بعض المتديّنين أفكار تخالف العقل والمنطق، هي أشبه بالأساطير والخرافات.. وينظر البعض منهم إلى الحياة والأشياء والأحداث نظرة ساذجة متخلفة.. كما تصدر من بعض الجهات الدينية ممارسات ومواقف سيئة شائنة.. والمؤلم في الأمر أنّ تلك الأفكار والنظرات والمواقف تنسب إلى الدين، مما أوجد إشكالًا وتساؤلًا حول مدى التوافق والعلاقة بين الدين والعقل.. فهل يعني التديّن تغييب العقل؟ وهل الدين بديل عن العقل؟

إنّ البعض من أولئك المتديّنين، حينما تناقشهم حول آرائهم وأفكارهم وممارساتهم، على ضوء العقل والمنطق، يغلقون باب النقاش والحوار، على أساس أنّ قضايا الدين تعبدّية، وأنّ دين الله لا يصاب بالعقول، فما هي حقيقة العلاقة بين الدين والعقل؟ وهل التديّن يعني تجميد دور العقل وإلغاءه؟

ومن الغريب جدًّا أنّ يتخذ بعض المتديّنين عبارة (إنّ دين الله لا يصاب بالعقول) شعارًا لهم، ودليلًا على تهميشهم للعقل، مع أنّ دين الله لا تدرك أصوله ومعتقداته الأساس إلّا بالعقل.

وإذا كانت العبارة المتداولة (إنّ دين الله لا يصاب بالعقول) قد وردت في رواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام، فإنّها بترت من سياقها، لتوظيفها بالاتجاه الخطأ، ولو قرأنا نصّ الرواية لوجدناها في سياق آخر، حيث تقول الرواية: «إِنَّ دِينَ اللَّهِ لا يُصابُ بِالْعُقُولِ النَّاقِصَةِ، وَالْآراءِ الْباطِلَةِ، وَالْمَقاييسِ الْفاسِدَةِ»[1].

حيث تشير الرواية إلى أنّ العقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، لا توصل الإنسان إلى الدين، وهو أمر صحيح، لكن العقول السليمة، والآراء القويمة، والمقاييس الصحيحة هي الطريق إلى الدين.

فالناقصة قيد احترازي يعني أنّ العقول الناقصة لا تدرك الدين، وليس قيدًا توضيحيًّا يصف كلّ العقول بأنها ناقصة.

وحين نقرأ القرآن الكريم نراه يؤكّد على دور العقل ومرجعيته، حيث وردت فيه عشرات الآيات كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾، وذمّ الذين لا يستخدمون عقولهم،

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، كمال الدين وتمام النعمة، طبعة ١٤٠٥هـ، (قم المشرفة: مؤسسة النشر الاسلامي)، ج١، ص٣٢٤، حديث ٩.

كقولـه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُـونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْـسَ عَلَـى الَّذِيـنَ لا يَعْقِلُـونَ﴾، وقوله تعالـى: ﴿أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.

إن العقـل نعمـة كبـرى ميّـز اللـه تعالـى بهـا الإنسـان على سـائر المخلوقـات، والديـن رسـالة وهـدي إلهـي أنعـم اللـه تعالـى به على الإنسان، فمصدر العقل والدين واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، وهما متلازمـان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وإذا ما رأينا انفكاكًا وانفصالًا فـي مـورد ما بين الدين والعقـل، فيجب أن ندقق النظر لنكتشـف نقطة غموض واشتباه فيما اعتبرناه دينًا أو اعتبرناه عقلًا؛ لأنّ الدين الصحيح لا يصادم العقل السليم.

والعلاقة بين الدين والعقل علاقة تكامل ودعم متبادل، حيث يرشد العقل إلى الدين، ويوجه الدين إلى العقل.

ولو استقرأنا نصوص السنة النبوية، وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام، لوجدناها تؤكد على التلازم الوثيق بين الدين والعقل.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «دين المرء عقله ومن لا عقل له لا دين له»[١].

وعنـه صلى الله عليه وآله: «إنمـا يدرك الخيـر كلّه بالعقـل، ولا دين لمـن لا عقل له»[٢].

(١) كنز العمال. ج٣، ص٣٧٩، حديث ٧٠٣٣.
(٢) بحار الأنوار ج٧٤ ص١٤٣.

وعن الإمام موسى الكاظم ﷺ: «إنّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ﷺ، وأما الباطنة فالعقول»[١].

يقول السيد محمد تقي الحكيم في كتاب (الأصول العامة للفقه المقارن) في نهاية بحثه لدليل العقل:

(إنّ العقل مصدر الحجج وإليه تنتهي، فهو المرجع الوحيد في أصول الدين، وفي بعض الفروع التي لا يمكن للشارع المقدّس أن يصدر حكمه فيها، كأوامر الإطاعة وكالانقسامات اللاحقة للتكاليف.

وفي مجال الأحكام الشرعية صحيح أنّ المصدر الأساس للتشريع هو النص الديني الكتاب والسنة، إلّا أنّ فهم النص وإدراك مراده، وطريقة تنفيذه وتطبيقه من وظيفة العقل.

كما أنّ العقل هو المدرك للوظيفة العملية عند فقدان الدليل على الحكم الشرعي، عبر دلالته على الاستصحاب والبراءة الشرعية)[٢].

وقد بحث العلماء مسألة ما قد يبدو من تعارض بين النص الديني والعقل. قال السيد محمد باقر الصدر:

١. الدليل اللفظي القطعي لا يمكن أن يعارضه دليل برهاني

---

(١) بحار الأنوار ج١، ص١٣٧.

(٢) السيد محمد تقي الحكيم. الأصول العامة للفقه المقارن، ج١، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م، (بيروت: دار الأندلس)، ص٢٩٩.

أو استقرائي قطعي؛ لأنّ دليلًا من هذا القبيل إذا عارض نصًّا صريحًا من المعصوم عليه السلام أدّى ذلك إلى تكذيب المعصوم عليه السلام وتخطئته، وهو مستحيل.

ولهذا يقول علماء الشريعة: إنّ من المستحيل أن يوجد أيّ تعارض بين النصوص الشرعية الصريحة وأدلة العقل القطعية.

٢. إذا وجد تعارض بين دليل لفظي، ودليل آخر ليس لفظيًّا ولا قطعيًّا، قدمنا الدليل اللفظي؛ لأنه حجة، وأما الدليل غير اللفظي فهو ليس حجة ما دام لا يؤدي إلى القطع.

٣. إذا عارض الدليل اللفظي غير الصريح دليلًا عقليًّا قطعيًّا برهانيًّا أو استقرائيًّا، قُدّم العقلي على اللفظي؛ لأنّ العقلي يؤدي إلى العلم بالحكم الشرعي، وأما الدليل اللفظي غير الصريح فهو إنما يدلّ بالظهور، والظهور إنما يكون حجة بحكم الشارع إذا لم نعلم ببطلانه، ونحن هنا على ضوء الدليل العقلي القطعي نعلم بأنّ الدليل اللفظي لم يرد المعصوم عليه السلام منه معناه الظاهر الذي يتعارض مع دليل العقل، فلا مجال للأخذ بالظهور[١].

(١) السيد محمد باقر الصدر. المعالم الجديدة للأصول، الطبعة الثالثة١٤٠١هـ، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات)، ص١٧٣.

التحذير من تهميش العقل

لأنّ الديانات السابقة للإسلام تحولت إلى حالة قامعة للعقل، وسادت فيها أجواء الجمود، وتكبيل حريات الناس باسم الدين، جاء الإسلام ليغيّر هذه الصورة عن الدين، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٧].

فمن وظائف الرسول ﷺ رفع القيود والأغلال التي كبّلت عقول الناس، وجمدت حركتهم باسم الدين، وبالإضافات والزيادات التي ألحقها أدعياء الدين إلى الدين، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٧٨].

لذلك حذّر الإسلام أبناءه أن يقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة، وجعل المقياس هو اليقظة العقلية، وليس التديّن الشكلي.

فمن ينتسب إلى الدين، ويحمل شعاره وعنوانه، ويمارس عباداته وطقوسه، لكنه غير مستخدم لعقله، ولا مستثمرٍ لفكره، فإنّ تديّنه سيكون مبتورًا ناقصًا، بل مشوّهًا قاتمًا. فقد أثنى قَومٌ عَلى رَجُلٍ عند رَسولُ اللّهِ ﷺ حَتّى ذَكَروا جَميعَ خِصالِ الخَيرِ فَقالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «كَيفَ عَقلُ الرَّجُلِ ؟ فَقالوا: يا رَسولَ اللّهِ، نُخبِرُكَ عَنهُ بِاجتِهادِهِ فِي العِبادَةِ وأصنافِ الخَيرِ، تَسأَلُنا عَن عَقلِهِ ؟! فَقالَ ﷺ: إنَّ الأَحمَقَ يُصيبُ بِحُمقِهِ أعظَمَ مِن فُجورِ الفاجِرِ، وإنَّما يَرتَفِعُ العِبادُ غَدًا فِي الدَّرَجاتِ ويَنالونَ الزُّلفى مِن رَبِّهِم عَلى قَدرِ عُقولِهِم»[1].

والحديث الشريف يفضح تصرفات بعض المتديّنين الحمقى، الذين انعدم لديهم الوعي، وغاب العقل، فأصبحت ممارساتهم أسوأ من فجور الفاسقين؛ لأنها تشوّه صورة الدين وسمعة المتديّنين، وما يحصل الآن من عنف وإرهاب ومذابح وفظائع واحتراب باسم الدين شاهد على ذلك.

وفي حديث آخر يحذّرنا رسول الله ﷺ من الاغترار بمظاهر

(١) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر العسقلاني، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ الْعَقْلِ وَفَضْلِهِ، ج١٢، الطبعة الأولى١٩٧٣م، (الكويت: وزارة الآوقاف والشؤون الإسلامية)، ص١١٧، حديث ٢٧٨٦، وتحف العقول، ص ٥٤.

التديّـن عنـد أيّ إنسـان إذا لم نتأكد مـن تعقّله؛ لأنّ التعقّـل هو مقياس التديّـن وميزان التقويم، يقول ﷺ فيما رُويَ عنـه: «إذا بَلَغَكُم عَن رَجُلٍ حُسنُ حالٍ فَانظُروا فى حُسنِ عَقلِهِ، فَإِنَّمايُجازى بِعَقلِهِ»(١).

وتطبيقًا لهذا التوجيه النبويّ جاءت الرواية التالية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «قال سُـلَيمانُ الدَّيلَمِيُّ: قُلتُ لِأَبـي عَبدِاللّهِ عليه السلام: فُلانٌ مِن عِبادَتِـهِ ودينِـهِ وفَضلِهِ كـذا وكذا، فَقـالَ: كَيفَ عَقلُهُ ؟ قُلـتُ: لا أدري، فَقالَ: إنَّ الثَّوابَ عَلى قَدرِ العَقلِ»(٢).

وأورد الكلينـي فـي حديـث موثق بسـنده عن علي بن أسـباط عن الحسن ابن الجهم، «عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ذكر عنده أصحابنا وذكـر العقل قال: فقال عليه السلام: «لا يعبأ بأهل الدين ممن لا عقل له، قلت: جعلت فداك، إنّ ممن يصف هذا الأمر قومًا لا بأس بهم عندنا وليست لهـم تلك العقـول، فقال: ليس هـؤلاء ممن خاطب اللـه، إنّ الله خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، وقال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت شيئًا أحسن منك أو أحبّ إليَّ منك، بك آخذ وبك أعطي»(٣).

إنّ مشـكلة بعـض المتديّنين أنهم يحجّمون الديـن بحدود فهمهم الضيّق، وإدراكهم السّـاذج، ثم يعتبرون ما عداه كفرًا وفسـقًا، كما ينقل عن أحد المشـايخ أنه كان يشرح لتلامذته عبارة فقهية تقول: إذا وقعت

(١) الكافى. ج ١، ص ١٢، حديث ٩.
(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٥٠٤، حديث٦.
(٣) الكافي، ج١، ص٢٧، حديث٣٢.

الفـأرة في السـمن فخرجت حيّـةً يبقى السـمن طاهرًا حـلالًا. ومعنى العبارة أنّ الفأرة لم تمت في السـمن وإنّما خرجت حيّة ـ أي على قيد الحياة ـ لكن الشـيخ فسّـرها: إنّ الفأرة تخرج حيّةً ـ أي ثعبانًا، فناقشه أحد تلامذته: كيف تقع الفأرة في السمن ثم تخرج ثعبانًا؟ وبدلاً من أن ينتبه الشـيخ لخطئه، أصرّ على كلامه، وطرد التلميذ من الدرس، متّهمًا إيّـاه بالكفر والتشـكيك فـي قدرة الله تعالـى، أليس الله قـادرًا على أن يحوّل الفأرة إلى ثعبان؟!

ومثـل هذا الشـيخ الأحمق نجـد بعض مـن يذكـرون المعجزات الغريبة والكرامات الأسطورية، فإذا ناقشته في صحة وقوعها، ردّ عليك بأنك تشـكك في قدرة اللـه، أو مكانة النبي والإمام والولي؟! لا شـك أنّ الله على كلّ شـيء قدير، وأنّ الله يجـري على أيدي أنبيائه وأوليائه المعجـزات وخوارق العـادات، حينما تقتضي ذلك مصلحة الرسـالة، وحسـب حكمتـه وتقديره، والـكلام هو فـي إثبات الوقـوع وليس في إثبات الإمكان، لكن هؤلاء الخرافيين يستخفون بعقول الناس.

استغلال المشاعر الدينية

يفتح الإقبال على أيّ سلعة من السلع المجال أمام ظهور سلع مقلّدة مغشوشة. ويمكن أن يقود ذلك إلى وجود سوق سوداء قائمة على الغشّ والتدليس. ونتيجة للرغبة الشديدة في السلعة الأصلية، فإنّ الناس غالبًا لا يتمكّنون من التفريق بين الأصلية وتلك المغشوشة، بل إنّهم يجدون أحيانًا في رخص ثمن السلع المغشوشة عامل جذب، فيقبلون عليها، إلى أن يلتفتوا فيما بعد أنّ بها عيوبًا وأضرارًا، وأنّها لا تحقق لهم ما كانوا يصبون إليه، وهذا أمر معروف وملموس.

وكما تجري ممارسة الغش والتزييف في الأشياء المادية، فإنّها يمكن أن تجري في الأمور المعنوية والروحية، ذلك أنّه وتحت إلحاح الحاجة للدين، والرغبة في الارتباط بالغيب، والإقبال على ما يُعتقد أنّه يحقّق رضا الله تعالى، يمكن أن يقود ذلك إلى ظهور سوق دينية سوداء، تعرض «منتجات» دينية غير أصلية، وإنّما هي مغشوشة ومدلّسة، تبدو

أنها أقلّ كلفة وثوابها أكبر.

وقد يكون العمل مندوبًا إليه شرعًا لكن التدليس يحصل في إعطائه حجمًا أكبر من حجمه الحقيقي، والمبالغة في تقدير ثوابه عند الله، مما يغري بتقديمه على الأعمال الأهم والأفضل، وكنموذج على ذلك الحديث التالي الوارد في فضل الأذان:

عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أذّن محتسبًا يريد بذلك وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب أربعين ألف شهيد وأربعين ألف صديق، ويدخل في شفاعته أربعون ألف مسيء من أمتي إلى الجنة، ألا وإنّ المؤذن إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله صلّى عليه سبعون ألف ملك، واستغفروا له، وكان يوم القيامة في ظلّ العرش حتى يفرغ الله من حساب الخلائق، ويكتب ثواب قوله أشهد أنّ محمدًا رسول الله، أربعون ألف ملك»[1].

إنّ اليقظة العقلية هي التي تفضح محاولات التزوير للدين، وقد سأل ابن السكيت يومًا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: ما الحُجَّةُ عَلَى الخَلقِ اليَومَ؟ فقالَ: «العَقلُ، يُعرَفُ بِهِ الصّادِقُ عَلَى اللّهِ فيُصَدِّقُهُ، والكاذِبُ عَلَى اللّهِ فيُكَذِّبُهُ، فقالَ ابنُ السِّكّيتِ: هذا وَاللّهِ هُوَ الجَوابُ»[2].

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ص ١٧.
(٢) الكافي، ج١، ص ٢٥، حديث٢٠.

وبالرغم من التشديد القرآني على التزام جانب العقل، لم تسلم الثقافة الدينية السائدة في أوساط المسلمين من تسلّل الخرافات والأساطير والمنتجات الدينية المغشوشة. وأصبح هناك سوق دينية سوداء، وساحة للغش والدّجل والتضليل باسم الدين، وهذا عين ما حذّر منه رسول الله، حتى قام ﷺ خطيبًا، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذَّابَةُ»[1]، في إشارة منه إلى سوق الكذب والاختلاق على لسانه.

إنّ مما ساعد أرباب الخرافة وصناع الأساطير، استغلالهم بعض الجوانب في الدين. ويأتي في الطليعة من ذلك استغلالهم الجانب الغيبي في الدين. حيث من الصحيح أنّ إيمان المؤمن لا يكتمل إلّا بالإيمان بالغيب، كما قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، إنّ الخرافيين والاستغلاليين يحاولون دومًا الإيحاء للناس بأنّ قضايا الحياة والكون تدار بشكل انفعالي وارتجالي، ويمكن أن تجري تبعًا لكتابة قصاصة هنا، أو إلقاء دعاء هناك، وعلى هذا النّحو يجري تبسيط الأمور، كما لو لم تكن هناك قوانين وسنن تسيّر هذا الكون، وهذا عين الاستغلال الممقوت في الوسط الديني.

إنّه في الوقت الذي جرى التأكيد في القرآن الكريم على الإيمان بالله وبالغيب، وغرس المفاهيم الدينية من التوكّل والرجاء والدعاء، جرى التأكيد في مقابل ذلك على أنّ للكون قوانين وأنظمةً وسننًا

(١) الكافي، ج١، ص٦٢، حديث١.

يجري عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وفي آية أخرى: ﴿.. وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾. ونجد آيات القرآن الكريم تشير بوضوح إلى أنّ الحياة لا تسير وفق التمنّيات، قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

إنّ من غير الوارد أبدًا أن تجري الحياة بخلاف السنن الإلهية، كما يروّج الخرافيون. لذلك فالإنسان مدعوٌّ إلى أن يسلك طريق السنن، ويأخذ بالأسباب والنواميس الطبيعية، ثم يدعو الله تعالى؛ لتكون حركته موافقة مع السنن الإلهية، ومن الخطأ الكبير أن يتجاهل الانسان السنن الإلهية ويلجأ عوضًا عن ذلك إلى الدعاء وحده. وقد تناولت هذا الجانب نصوص دينية كثيرة، ومن ذلك ما ورد أنّ رجلًا من البادية جاء المدينة المنورة على دابة، ودخل على رسول الله وكان في المسجد، وسأل رسول الله مشيرًا إلى دابته: أأعقلها وأتوكّل أو أطلقها وأتوكل؟، فقال النبي: «اعقلها وتوكل»[1].

وفي سياق مشابه ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أنّ نبيًّا من الأنبياء مرض، فقال: لا أتداوى حتى يكون الذي أمرضني هو الذي يشفيني، فأوحى الله إليه: لا أشفيك حتى تتداوى فإنّ الشفاء منّي»[2].

(١) سنن الترمذي. حديث ٢٥١٧.
(٢) وسائل الشيعة. ج٢، ص٤٠٩، حديث٢٤٩٦.

وجاء في رواية أنّ العلاء بن كامل أقبل فجلس قدّام أبي عبدالله الصادق عليه السلام فقال: يا بن رسول الله، ادعُ الله عزّ وجلّ أن يرزقني في دعة، فأجابه الإمام: «لا أدعو لك، اطلب كما أمرك الله عزّ وجلّ»[1].

وعلى هذا النحو يعلّمنا الدين أنّ مسيرة الحياة مقيّدة بالسنن والقوانين.

إنّ الخرافيين يمعنون في استغلال حاجات الناس باسم الدين. فإذا كانت بعض الأوساط تعاني مشاكل معينة، فتحوا أذرعهم إليهم، وراحوا يسوقون عليهم خرافاتهم، مُوحين إليهم بأنّ خرافاتهم تلك هي المفتاح السحري لحلّ مشاكلهم، وهذا عين التدليس على الناس.

ولعلّ أحد أوجه هذه التخريفات ممارسة الرقية الشرعية الشائعة على نحو أكبر في المجتمع السني، حيث يقوم الراقي بقراءة الآيات القرآنية أو الأدعية مع النفث على الموضع الذي يتألم منه الجسد، أو على المريض المراد رقيته، فقد أصبحت هذه الممارسة بضاعة رائجة، يجري من خلالها خداع بسطاء الناس، حتى بلغ بأحدهم، وفقًا للصحف المحلية، أن يدعو إلى فتح عيادات خاصة بالرقية الشرعية داخل المستشفيات العامة.

هنا ينبغي القول أنّه لا خلاف حول فضل تلاوة القرآن الكريم، وأنّها من العوامل التي ترفع معنويات الإنسان، وتستثير الجانب

(١) الكافي. ج٥، ص٧٨، حديث٣.

الروحي عنده، غير أنّ مورد الخلاف هنا، يكمن في استغلال هذه الحالة لتكريس الشعوذة في أوساط الناس، من خلال ترويج المزاعم بأنّ هذا فيه مسٌّ من الجن، وذاك متلبّس به الجنّ، وما إلى ذلك من مزاعم باتت منتشرة في مختلف الأوساط.

وقد نشرت الصحف المحلية، عن شخص كان يمارس الرقية الشرعية مدة عشرين سنة، وقد قال هذا الرجل بعد أن اعتزل ممارسة الرقية، إنّ الحديث عن تلبّس الجنّ بالإنسان أمر غير صحيح، وأنّ تكلّم الجنّ بلسان الإنسان أمر منافٍ للواقع، مبيّنًا أنّ مثل هذا الحديث لا ينطلي إلّا على طبقة السّذج والمغفلين، ونقلت الصحف عنه القول إنّه لم يثبت في الكتاب ولا السنة أنّ الجنّ يمكن أن يتكلم على السنة الناس، وقال إنّه طيلة عمله لم يحضر إليه طلبًا للشفاء إلّا طبقة السّذج والمغفلين فقط، ثم يتساءل؛ هل الجنّ سذّج فلا يبحثون عن التلّبس إلّا بالفقراء، ولماذا لا يتلّبسون بالأثرياء[1]؟!.

لقد بات للخرافيين والمشعوذين سوق رابحة في عصرنا الراهن، بلغت حدّ امتلاك وسائل الإعلام والقنوات الفضائية الخاصة.

حيث تقوم تجارتهم على استغلال مقيت لجانب الغيب في العقيدة الدينية، فيقومون بتضخيمه في حياة الناس، على حساب المفاهيم الدينية التي تؤكّد خضوع الكون والحياة إلى السنن والقوانين الإلهية.

(١) جريدة عكاظ الصادرة بتاريخ الأربعاء ٩ ربيع الآخر ١٤٣٧هـ.

الجمود واتّباع الأسلاف

مـن مظاهر تهميـش العقل فـي أوسـاط المتدينيـن، الجمود على فهم الأسـلاف للدين، ولا شـك أنّ الظروف متغيـرة والحياة متطورة، والأسـلاف فهموا الدين حسـب مسـتواهم، وضمن ظـروف عصرهم وبيئتهـم، ونـجـد أنّ منهجيـة الدين قائمـة على مراعاة التطـور، لذلك تجددت الشـرائع عبر الأنبياء، مع أنّ الدين واحد في جوهره. ونرى أنّ هناك فرقًا في التشريعات والخطاب القرآني بين العهد المكي والمدني.

وكذلـك كان الأئمـة أيضًا يأخذون تغيّر عصورهـم بعين الاعتبار. ورد في الكافـي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال لبعض أصحابه: «أَرَأَيْتَكَ لَوْ حَدَّثْتُكَ بِحَدِيثٍ الْعَامَ، ثُمَّ جِئْتَنِي مِنْ قَابِلٍ فَحَدَّثْتُكَ بِخِلَافِهِ، بِأَيِّهِمَا كُنْتَ تَأْخُذُ؟» قَالَ: قُلْتُ: كُنْتُ آخُذُ بِالأَخِيرِ، فَقَالَ لِي: «رَحِمَكَ اللهُ»[1].

وعـن المعلـى بن خنيس قـال: قلت لأبـي عبـد اللـه عليه السلام: إِذَا جَاءَ

(١) الكافي. ج١، ص ٦٧، حديث ٨.

حَدِيثٌ عَنْ أَوَّلِكُمْ وَحَدِيثٌ عَنْ آخِرِكُمْ، بِأَيِّهِمَا نَأْخُذُ؟ فَقَالَ: «خُذُوا بِهِ حَتّى يَبْلُغَكُمْ عَنِ الْحَيِّ، فَإِنْ بَلَغَكُمْ عَنِ الْحَيِّ، فَخُذُوا بِقَوْلِهِ». قَالَ: ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ ﷺ: «إِنَّا وَاللهِ لَا نُدْخِلُكُمْ إِلاَّ فِيمَا يَسَعُكُمْ». وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «خُذُوا بِالْأَحْدَثِ»[1].

لذا صنّف الفقهاء الأوامر النبوية إلى تشريعية دائمة، وإلى تدبيرية ترتبط بظروف ومصالح في زمن صدورها.

ويطرح الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه (الاجتهاد والتقليد) نظرًا يدعو الفقهاء والحوزات العلمية إلى دراسته، يقول: مسألة نطرحها أمام الفقهاء للبحث والتدبر، ولعلّها من أهم ما ينبغي أن يبحث في الأصول، وهي: أنّ النظرة الفقهية السائدة إلى النصوص الشرعية في العبادات وغيرها، هي أنّ هذه النصوص مطلقة وعامة في الزمان والمكان والأحوال. ولا يرفع اليد عن إطلاق النص إلّا بمقيد أو مخصص لفظي أو لبّي، أو بأن يتضمن قرينة داخلية على ذلك.

هذا مع أننا نعلم أنّ نصوص الشريعة في السنة تشريعات لحياة متحركة متغيرة كثيرة التقلبات، وليست صيغًا جامدة ثابتة على هيئة واحدة. والقسم الوحيد الثابت في الشريعة هو قسم العبادات، فإننا نعلم أنّ العبادات ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل، ولا مجال فيها للاجتهاد من حيث شروطها ومواقيتها وكيفيتها وإعدادها. وما فيها من خلافات بين الفقهاء لا يتعدّى تفصيلات بعض الشروط والهيئات والأجزاء.

(١) المصدر السابق، حديث ٩.

وأما المعاملات ـ بالمعنى الأوسع ـ فإنها ـ كما ذكرنا ـ تشريعات لحالات متقلبة متغيّرة لا تستقرّ على هيئة واحدة، وخاصة ما يتعلق من ذلك بالنواحي التنظيمية للمجتمع، وكافة أنشطته السياسية والاقتصادية والزراعية والصناعية والسكانية: المدنية الحضرية والريفية، وما يتصل بالثروات العامة والمرافق العامة.

ويضيف: مما ينبغي أن يعـزّز هذه النظرة «المتحركة» إلى النصوص التشـريعية مـا صرح بـه كثير من أعاظـم الفقهاء من أنّ «التعبد الشـرعي» المقتضـي للجمود علـى النص معلوم فـي باب العبادات فقـط. وأما في أبـواب المعامـلات بالمعنـى الأعم، فـإنّ «التعبد الشـرعي» غيـر معلوم الثبـوت فيهـا، بـل معلوم عدم الثبوت فـي جميعها، فلا ريـب أنّ في هذه التشريعات ما هو نسبي ناشئ من علة خاصة بحالة معينة أو ظرف معيّن لا يتعدّاه إلى غيره، وعلى الفقيه أن يكتشف هذا الجانب المتغيّر والمتحرك، ولا يجمد على النصوص بدعوى أنّ هذا شرع الله إلى يوم القيامة[1].

لكـن هنـاك من يصـرّ علـى التقيّـد بالأسـلاف حتى فـي موضوع الوسـائل والتطبيقات، فضلا عن الأحكام والتشريعات، فيعقّدون حياة الناس، ويعيش المسلم إرباكًا، وتأزّمًا في إدارة شؤون حياته.

الالتزام بأقوال السلف

يقـول أبو الحسـن ابن القطـان: «وأجمعـوا أنه لا يجـوز لأحدٍ أن

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين. الاجتهاد والتقليد، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر). ص١٧٣ - ١٧٥.

يخرج على أقاويل السلف فيما أجمعوا، وعمّا اختلفوا فيه أو تأويله، فإنّ الحقّ لا يجوز أن يخرج عن أقاويلهم»[١].

وأورد الخطيب البغدادي في (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) عن سفيان الثوري: إن استطعت ألّا تحك رأسك إلّا بأثر فافعل[٢].

وحكى الشيخ صالح بن حميد رئيس مجلس الشورى السعودي السابق في احتفال تكريمي أقيم في جامعة أم القرى لوالده الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد (١٣٢٩ - ١٤٠٢هـ)، كيف تمكن والده في السبعينيات الهجرية من كسب معركة بناء الجامع الكبير في بريدة بالإسمنت المسلح، بعد أن لقي معارضة شديدة من أهالي المدينة، الذين اعترضوا بشدة وطالبوه بأن يكون البناء بالطين وسعف النخيل، على ما درج عليه أجدادهم معتبرين ذلك معركة حياة أو موت[٣].

وهناك في بلادنا ممانعة لأيّ تطور أو تغيير باسم الدين، وآخرها مسألة قيادة المرأة للسيارة، حيث حسمت القيادة السياسية الموقف، وصدر الأمر برفع الحظر عن قيادة المرأة للسيارة، بعد عقود من التردد والتحفظ.

---

(١) أبو الحسن ابن القطان الفاسي. الإقناع في مسائل الإجماع. تحقيق حسين بن فوزي الصعيدي، ج١، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر)، ص٦٩، رقم ٢٦٥.

(٢) أحمد بن علي الخطيب البغدادي. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٢١٦.

(٣) جريدة المدينة، ملحق الرسالة، ٣٠ شوال ١٤٢٦هـ.

الحسين عليه السلام ثورة إنسانية قيمية

جاء في أول خطاب للإمام الحسين عليه السلام أمام الجيش الأموي: «أيُّهَا النّاسُ، إنّي لَم آتِكُم حَتّى أتَتني كُتُبُكُم، وقَدِمَت عَلَيَّ رُسُلُكُم : أنِ اقدَم عَلَينا ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ لَنا إمامٌ، لَعَلَّ اللّهَ يَجمَعُنا بِكَ عَلَى الهُدى والحَقِّ. فَإِن كُنتُم عَلى ذلِكَ فَقَد جِئتُكُم، فَإِن تُعطوني ما أطمَئِنُّ إلَيهِ مِن عُهودِكُم ومَواثيقِكُم اَقدَم مِصرَكُم، وإن لَم تَفعَلوا وكُنتُم لِمَقدَمي كارِهينَ انصَرَفتُ عَنكُم إلَى المَكانِ الَّذي أقبَلتُ مِنهُ إلَيكُم»[1].

(١) محمّد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد). الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، (بيروت: دار المفيد)، ص٧٩.

الحسين مشروع أمة

ثـورة الإمام الحسـين عليه السلام لم تكـن طموحًا شـخصيًّا للوصول إلى السـلطة، وليسـت تنافسًـا بيـن قبيلتي بني هاشـم وبني أميـة، ولم تكن حركة طائفة، بل كانت مشـروعًا لإصلاح الأمة، حين تسلط عليها يزيد بن معاوية، كما قال عليه السلام: «إنّى لَمْ أخْرُجْ أشـراً وَلاَ بَطِراً، وَلاَ مُفسِـداً وَلاَ ظَالِمـاً، وَإنَّمَـا خَرَجْتُ لِطَلَبِ إلاّ صَلاحِ فِى امَّة جَدّى صلى اللّه عليه و آله، أن آمُرَ بِالْمَعرُوف، وأنهى عَنِ المُنكَرِ، وَأسِيرَ بِسيرَةِ جَدَّى وَأبِى»[1].

إنّ المهمـة الأولـى والأسـاس لأئمـة أهـل البيـت عليهم السلام هـي حفظ الرسـالة، وتبيين الشـريعة، أما تحمل أعباء الحكم والسلطة فهي مهمة ثانية ثانوية، قياسًا للمهمة الرسالية الأولى. فإذا ما تعارضت المهمتان، كما حصل بسـبب الأطمـاع السياسـية، والصراعـات المصلحية، فإنّ الأولوية عندهم للمهمة الأولى.

(١) الموفـق بـن أحمـد المكـي (الخوارزمـي). مقتل الحسـين عليه السلام، تحقيق الشـيخ محمد السماوي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، (قم: دار أنوار الهدى)، ص٢٧٣.

الطريق الشرعي

وإذا كان الحكم والسلطة وظيفة من وظائف الإمامة، ووسيلة لتمكينها من تحقيق أهدافها وتطلعاتها الرسالية، إلّا أنّ طريق الوصول إلى الحكم، وآلية استلام السلطة، يجب أن يكون منسجمًا مع مفاهيم الإسلام وتشريعاته، فليس الحكم مطلوبًا بأيّ ثمن، وبأيّ وسيلة، ولو كانت مخالفة لقيم الإسلام وأحكامه.

لذلك رفض الأئمة عليهم السلام الأساليب الملتوية في الصراع السياسي للوصول إلى الحكم، ولم يرضوا لأنفسهم تسنّم عرش السلطة عن طريق الفرض والقوة، ولا عبر المؤامرات والدسائس، بل التزموا منهجية الوضوح والنزاهة، واحترام إرادة الأمة واختيارها، وإنْ أدى ذلك إلى فقدان المكاسب السياسية، وفوت الامتيازات والمصالح. فالمبدئية وسيلة وهدف.

وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام علي عليه السلام بقوله: «واللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، ولكِنَّهُ يَغْدِرُ ويَفْجُرُ. ولَولَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ»[1].

وفي مورد آخر يقول عليه السلام: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا»[2].

---

(١) نهج البلاغة، ومن كلام له عليه السلام في معاوية، خطبة ٢٠٠.
(٢) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام لما عوتب على التسوية في العطاء، خطبة ١٢٦.

ويبـدو أنّ اختيار الأمـة ورضاها، هو الطريق المشـروع الذي يقبله الإمام لممارسة دور الحكم والقيادة، وليس القوة، أو التآمر، أو الثورات والانقلابـات، يقول الإمام علي عليه السلام: «وقد كان رسـول الله صلى الله عليه وآله عهد إليَّ عهدًا فقال: يا بن أبي طالب، لك ولاء أمتي، فإن ولَّوك في عافية وأجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم، وإن اختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه»[١].

وحدة الأمة

ليـس هناك شـيء أخطر علـى وحدة الأمـة، وتماسـك المجتمع، من الصراعات السياسـية، التي بسـببها تتحول الأمة الواحدة إلى شـيع وأحـزاب، وتكـون مدخـلًا للتمزق والاحتـراب الأهلـي، حيث تراق الدماء، وتنتهك الحرمات، وينعدم الأمن والاستقرار.

ومع إيمان أئمة أهل البيت عليهم السلام بحقهم في القيادة والحكم، إلّا أنهم تنازلـوا عن الأخـذ بذلك الحقّ حين كان يسـتلزم احترابًـا داخليًّا، فقد عصمهـم ورعهم، وحرصهم على وحدة الأمة، من خوض الصراعات السياسية، والسعي للمغالبة على السلطة والحكم.

ينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة خطبة للإمام علي عليه السلام يقول فيها: «فرأيت أنّ الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين، وسفك دمائهم، والناس حديثو عهد بالإسلام»[٢].

---

(١) بحار الأنوار. ج٣٠، ص١٥.
(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي. شـرح نهج البلاغة، ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص٣٠٨.

ومثل موقف الإمام علي عليه السلام كانت مواقف الأئمة الهداة من بعده، فقد جنح الإمام الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية، رغم أنه كان الخليفة الشرعي الذي بايعه المسلمون بعد شهادة أبيه.

أخرج الحاكم عن جبير بن نُفير قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ إِنَّكَ تُرِيدُ الْخِلَافَةَ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ جَمَاجِمُ الْعَرَبِ فِي يَدِي يُحَارِبُونَ مَنْ حَارَبْتُ، وَيُسَالِمُونَ مَنْ سَالَمْتُ تَرَكْتُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَقْنَ دِمَاءِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله»[1].

وكذلك كان موقف الإمام جعفر الصادق عليه السلام الرافض لتبنّي حركة العباسيين، فبعد أن ساد التذمر في أوساط الأمة من حكم الأمويين، وتحرك العباسيون للانقضاض على السلطة، رافعين شعارات الدعوة لأهل البيت، والأخذ بثأرهم، عرضوا على الإمام جعفر الصادق عليه السلام الانضمام إلى حركتهم وثورتهم، ليكون في موقع الزعامة والقيادة، فرفض دعوتهم.

توجيه شيعتهم للاندماج في الأمة

إن الحفاظ على وحدة الأمة ومنع انقسامها وانشقاقها، كان مقصدًا أساسًا في نهج أهل البيت عليهم السلام، وقد وجهوا شيعتهم بهذا الاتجاه، ومن هنا جاء تركيزهم على موضوع التقية، وهي مبدأ إسلامي.

---

(١) المستدرك على الصحيحن، الحاكم النيسابوري، من فضائل الحسن بن علي، حديث ٤٧٩٥. وأيضًا بحار الأنوار. ج٤٤، ص٢٥، حديث٨.

ففـي القرآن الكريم آيات عديدة تبيّن أنّ الإنسـان إذا كان في موقع يخـاف الضـرر على نفسـه، أو في موقف يسـبب له مشـكلة من إظهار رأيـه وعقيدته، فـإنّ له أن يلجأ إلـى التكتم على رأيـه وعقيدته، حفاظًا على حياتـه ومصلحته. إنّ القـرآن الكريم يقول: ﴿لَّا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِيـنَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَـلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّـهِ فِي شَـيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُـوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾، ويقول تعالـى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّـهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِـنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَـهُ﴾، إضافة إلى القاعدة العامة ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُـمْ إِلَيْهِ﴾ وحينما نعود إلى كتب التفسـير، نـجـد كلّ عالم يمرّ على هذه الآيات الكريمة يستعرض هذا المفهوم، وفي الفقه نجد موارد مختلفة يبحث فيها الفقهاء أثر الإكراه والاضطرار.

ربمـا يقول بعض علماء السـنة بـأنّ التقية تكون مـن الظالم الكافر فقـط، وأنّ الآيات الكريمـة التي تحدثت عن التقية إنما هي في سـياق التقية من الظالم الكافر، لكنّ بعضًا من علماء السنة وكلّ علماء الشيعة يرون مفهوم التقية أوسع، حيثما كان هناك حاجة واضطرار إليها، سواء كانت تجاه الظالم الكافر أو المسلم.

فمذهب الإمام الشافعي يقول: «إِنَّ الْحَالَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا شَاكَلَتِ الْحَالَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ حَلَّتِ التَّقِيَّةُ مُحَامَاةً عَلَى النَّفْسِ»[1].

(١) محمد الرازي، تفسـير الفخـر الرازي، المجلد الرابع، ج٨، سـورة آل عمران: آية ٢٨، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ (بيروت: دار الفكر)، ص١٤.

وحينما أُخذ علماء من أهل السنة في عهد المأمون والمعتصم، وامتحنوا في مسألة القول بخلق القرآن استخدموا التقية إلّا أربعة أو خمسة.

من ناحية أخرى، فإنّ التقية حين يبحثها الشيعة إنما يبحثونها في إطارين:

الإطار الأول: دفع الضرر الشخصي، أو فلنقل دفع الضرر المادي على الشخص أو على المجتمع.

والإطار الثاني: دفع الضرر عن الأمة، وحماية الوحدة الإسلامية، ويعنون بذلك أنه إذا كانت ممارسة حكم من الأحكام المقررة في المذهب، تبرز حالة من الانشقاق في الأمة، فإنّ المذهب يجيز لأبنائه ترك ذلك؛ حفاظًا على الوحدة، لأولوية الوحدة وأهميتها، وهذا ينبغي أن يحسب للمذهب الشيعي كامتياز وليس مأخذًا عليه.

إنّ على الشيعي أن يتمسك بعقيدته، وأن يندمج في محيطه، وألّا يقف أمام بعض الأحكام كعائق عن الاندماج، فإنّ مدرسة أهل البيت ﷺ، تعطي الأولوية لتجسيد القيم الكبرى، ولحماية مصالح الفرد والمجتمع.

الصلاة في جماعة أهل السنة:

وبالمناسبة، أوجّه الخطاب إلى الإخوة والأخوات الذين يحضرون إقامة صلاة الجماعة لإخوانهم أهل السنة، أن عليهم أن يشاركوهم في

صلاة الجماعة، وألّا ينفردوا في صلاتهم، ولا يخرجوا من المكان الذي تقام فيه الصلاة.

فقد جاء بسند صحيح عن حماد بن عثمان عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: «من صلّى معهم في الصف الأول كان كمن صلّى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله في الصف الأول»[١].

وعنه عليه السلام: «إذا صليت معهم غفر لك بعدد من خالفك»[٢].

وعن زيد الشحام عن الصادق عليه السلام قال: «يا زيد، خالقوا الناس بأخلاقهم، صَلُّوا في مساجدهم، وعُودوا مرضاهم، واشهدوا جنايزهم»[٣].

وعن علي بن جعفر في كتابه، عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: «صلّى حسن وحسين خلف مروان ونحن نصلي معهم»[٤].

وقد استنكر السيد السيستاني، وهو المرجع الأعلى للشيعة اليوم، على بعض الشيعة خروجهم من المسجدين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة حين إقامة صلاة الجماعة، حيث قُدّم له السؤال التالي:

يلاحظ أحيانًا خروج بعض أبناء الطائفة من المسجدين الشريفين

---

(١) الحاج آقا حسين الطباطبائي البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، طبعة ١٤١٣هـ، (قم)، حديث ١٠٩٩٦.
(٢) وسائل الشيعة، حديث ١٠٧١٧.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، حديث ١٠٩٩٥.
(٤) وسائل الشيعة، حديث ١٠٧٢٥.

حين إقامة الجماعة فيهما، فما هو رأيكم؟

أجاب سماحته: هذا العمل غير مناسب، بل ربما لا يجوز لبعض العناوين الثانوية كالإساءة إلى سمعة المذهب.

وحين سئل عن إقامة صلاة الجماعة في فنادق مكة المكرمة والمدينة المنورة، من قبل بعض الحجاج والزائرين الشيعة، أجاب: بأنّ «المشاركة في جماعة المسلمين في المسجدين لغرض التآلف بينهم أفضل»[1].

وحتى بالنسبة للإفطار في شهر رمضان مغربًا، إذا كنت مع إخوانك أهل السنة، يمكنك أن تفطر معهم بعد سقوط قرص الشمس، وقبل ذهاب الحمرة المشرقية، بناءً على فتوى بعض المراجع ممن يرون ذلك إذا كان مرجعك يحتاط وجوبًا في المسألة كما هو الحال في رأي المرجع السيد السيستاني، حيث يختلف فقهاء الشيعة في المسألة، فبعضهم يرى عدم تحقق الغروب إلّا بذهاب الحمرة المشرقية، أي بعد حوالي ١٥ دقيقة من سقوط قرص الشمس، ومعظمهم يرى ذلك على نحو الاحتياط الوجوبي، لكن هناك من يرى الانتظار حتى ذهاب الحمرة المشرقية، كاحتياط استحبابي فقط.

إنّ بعض أبناء الشيعة قد يجتمعون مع إخوانهم أهل السنة وقت الإفطار في شهر رمضان، وهم يبادرون إلى الإفطار عند سقوط قرص

(١) السيد علي السيستاني، مناسك الحج وملحقاتها، أحكام الجماعة، طبعة ١٤٣١هـ، (البحرين: دار كميل)، ص٣٤٢.

الشمس، بينما يلتزم الشيعي الرأي الفقهي الذي يدعو إلى تأخير الإفطار ١٥ دقيقة، مما يسبب شيئًا من الإحراج في بعض الأحيان. وهنا يمكن الأخذ بالرأي الذي يجيز الإفطار عند سقوط قرص الشمس. بناءً على من يذهب إلى هذا الرأي من فقهاء الشيعة المعاصرين، ومنهم: الشيخ يوسف الصانعي[١]، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي[٢]، والسيد محمد صادق الروحاني[٣]، والسيد محمد سعيد الحكيم[٤].

(١) الشيخ يوسف الصانعي. مصباح المقلدين، الطبعة الثانية١٤٢٥هـ، (قم: منشورات ميثم التمار)، مسألة: ٧١٥.
(٢) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي. رسالة توضيح المسائل، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، (قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب)، مسألة: ٧٠٩.
(٣) السيد محمد صادق الروحاني. منهاج الصالحين، مسألة: ٥٥٣.
(٤) استفتاء، موقع السيد محمد سعيد الحكيم، http://www.alhakeem.com/ar/question/226

العنف ليس خيارًا

ما كانت تنقص أهل البيت الشجاعة ولا روح التضحية لكي يطالبوا بحقهم في قيادة الأمة، لكنهم كانوا لا يريدون للأمة أن تدخل في دوامة العنف. فتحملوا الظلامة ولم يلجأوا إلى العنف.

لذلك ورد عن علي عليه السلام: «لَأُسلِمَنَّ ما سَلِمَت أُمورُ المُسلِمينَ، ولَم يَكُن فيها جَورٌ إلّا عَلَيَّ خاصَّةً»(١).

وانطلاقًا من ذات الموقف كان قبول الإمام علي عليه السلام بالتحكيم في واقعة صفين، مع أنه ليس في مصلحته سياسيًّا ولا عسكريًّا، لكنّ عليًّا وافق عليه لأسباب في طليعتها حقن الدماء، ووضع حدٍّ للاحتراب.

وكذلك صلح الإمام الحسن عليه السلام ووصيته لأخيه الحسين قبيل وفاته أن يأخذ بجثمانه لزيارة قبر جده رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث أردف قائلًا: «وستعلم يا ابن أمّ أنّ القوم يظنون أنكم تريدون دفني عند رسول

(١) نهج البلاغة، ومن كلام له عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان، خطبة رقم ٧٤.

اللـه صلى الله عليـه وآله فيجلبون فـي منعكم عن ذلك، وبالله أقسـم عليك أن تهرق في أمري محجمة دم»[١].

أما ثورة الإمام الحسين فهي استثناء يؤكد القاعدة ولا ينفيها، حيث كان تسـلّط يزيد بـن معاوية منعطفًـا صارخًا وخطيرًا فـي تاريخ الأمة، وكان لا بدّ وأن يسـجل الحسـين اعتراضه على هذا الانحراف الكبير، عبـر الامتناع عـن بيعة يزيد، لكن السـلطة الأموية أصـرّت على إلزامه بالبيعـة، أو مواجهته بالعنف، كما قـال عليه السلام: «ألّا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز منا بين اثنتين، بين السـلة والذلة، وهيهات منا الدنيئة، يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، وأن نؤثر طاعة اللئام على مصراع الكرام»[٢].

وقد سعى الحسين بكلّ جهده لتلافي الحرب والاحتراب، فخرج من مكة ليفوّت على السـلطة انتهاك حرمتها، بمقاتلته فيها، وفي طريقه إلـى العراق ولقائه بطلائع الجيش الأمـوي، قال لهم: «أَيُّهَا النّاسُ، إنّي لَم آتِكُم حَتّى أَتَتني كُتُبُكُم، وقَدِمَت عَلَيَّ رُسُـلُكُم : أنِ اقدَم عَلَينا ؛ فَإِنَّهُ لَيـسَ لَنا إمامٌ، لَعَلَّ اللّه َيَجمَعُنا بِكَ عَلَى الهُدى والحَقِّ. فَإِن كُنتُم عَلى ذلِـكَ فَقَد جِئتُكُم، فَإِن تُعطوني ما أطمَئِنُّ إلَيـهِ مِن عُهودِكُم ومَواثيقِكُم اَقـدَم مِصرَكُـم، وإن لَم تَفعَلوا وكُنتُم لِمَقدَمـي كارِهينَ انصَرَفتُ عَنكُم

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص١٧.
(٢) تحف العقول، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

إلَى المَكانِ الَّذي أقبَلتُ مِنهُ إلَيكُم»[١].

وتكرر منه هذا الطرح أمام الجيش الأموي في كربلاء، وتشير المصادر التاريخية إلى أنه عليه السلام تفاوض مع عمر بن سعد، لتلافي المعركة، وكاد أن يتحقق الاتفاق، لكن محاولة خبيثة من شمر بن ذي الجوشن أفشلت المفاوضات، جاء في تاريخ الطبري: «كانا التقيا مرارًا ثلاثًا أو أربعًا حسين وعمر بن سعد، قال فكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد: أما بعد، فإنّ الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمة، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، ...، قال: فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال، هذا كتاب رجل ناصح لأميره، مشفق على قومه، نعم، قد قبلت. قال: فقام إليه شمر بن ذي الجوشن فقال: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك، والله لئن رحل من بلدك، ولم يضع يده في يدك، ليكونن أولى بالقوة والعزّ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة، فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت فأنت ولي العقوبة، وإن غفرت كان ذلك لك، والله لقد بلغني أنّ حسينًا وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين، فيتحدثان عامة الليل فقال له ابن زياد: نعم، ما رأيت الرأي رأيك»[٢].

فليحذر الشباب من متاهات العنف

وبهذه المناسبة أوصي الشباب الأعزاء أن يتفكروا في هذا النهج

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص٧٩.
(٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٣-٣١٤.

الحسيني، لئلا يقعوا في متاهات العنف، التي لن تجرّ عليهم وعلى مجتمعهم إلّا الوبال، كما رأينا فيما حصل في منطقتنا في الأشهر الماضية، ونأمل أن تكون تلك الصفحة الأليمة قد طويت، وأن تعود المنطقة إلى سابق عهدها تتمتع بالأمن والأمان، ويتمتع أهلها بالسمعة الطيبة على مستوى الوطن، بعيدًا عن مساوئ العنف والإرهاب.

وأن يأخذوا بعين الاعتبار كلام علماء البلاد، وتوصيات المراجع الكرام بالعودة إلى علماء البلاد، وهذا هو النهج السليم للمرجعية، فهي مرجعية دينية تترك أمور كلّ بلد السياسية والاجتماعية لأهلها، وعلى من يثير الإشكالات على انتماء الشيعة وتقليدهم للمراجع أن يعرف ذلك.

وقد كتب علماؤنا كتبًا وأبحاثًا رفضوا فيها توجهات العنف داخل المجتمعات الإسلامية، وممن اهتم بالموضوع كثيرًا المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي، الذي ألف عددًا من الكتب حول اللاعنف، وألقى عشرات الخطب والمحاضرات في ضرورة التزام السلم في الدفاع عن الحقوق، والسعي للتطلعات المشروعة، لكن تراثه في هذا المجال أصبح مغيّبًا مع الأسف الشديد.

وكذلك الفقيه الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي أصدر كتابًا علميًّا قيّمًا تحت عنوان: (فقه العنف المسلح في الإسلام)[1].

(١) الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ، (بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين).

هذا الجانب من مدرسة كربلاء، مدرسة الإمام الحسين عليه السلام، مهم جدًّا أيّها الأعزّاء؛ لأنّ الإنسان عندما ينخرط في مشروع عمل ديني أو اجتماعي أو سياسي، قد يسيطر عليه هَمّ إنجاح العمل وفق خطته ورأيه، ولا يبالي بأحاسيس الآخرين ومشاعرهم وحقوقهم.

فمثلًا في العمل الديني، ما يرتبط منه بالمسجد، أو الحسينية، أو موكب العزاء، أو أيّ نشاط آخر، على من يلتحق به أن يعلم أنه إذا كان يريد رضا الله، ويريد الأجر والثواب، فإنّ الله لا يطاع من حيث يُعصى، لا ينبغي أن تدار الأمور بتوتر، وتشنج، وحساسية، وسلطوية في الأنشطة الدينية، مما يسبب فتنة أو مشكلة أو إساءة لأحد، أو اعتداءً على حقوق الآخرين المادية والمعنوية. فترك النشاط أفضل عند الله من نشاط مشوب بذنب الإساءة للآخرين.

وكذلك في العمل الاجتماعي في الجمعية الخيرية، أو النادي

الرياضي، أو أيّ مؤسسة اجتماعية.

ومؤسف أن تحصل بعض المشاكل على هذا الصعيد، لسنا مثاليين، ولا نمارس جلدًا للذات، لكن علينا اليقظة والانتباه.

وكذلك في مجال العمل السياسي، غالبًا ما يتلوث العاملون في هذا المجال ببعض الممارسات غير النظيفة في تعاملهم مع أقرانهم ومنافسيهم. بل حتى في داخل تجمعاتهم.

لقد سجل الحسين عليه السلام في نهضته أروع الصفحات في الالتزام القيمي، إنه مع قلة الناصر يأمر من عليه دين أن ينسحب من معسكره.

حيث أمر مُناديًا في أصحابه ليلة العاشر من المحرم، لا يُقتل معنا رجل وعليه دَين، فقام إليه رجل من أصحابه فقال له: إنَّ عليَّ دَينًا وقد ضمنته زوجتي فقال عليه السلام: وما ضمان امرأة ؟[1]، أي إنها لا إمكانية لها في الالتزام بالضمان.

ثم يجمع أصحابه ليعطيهم جميعًا خيار الانسحاب.

حيث قال عليه السلام مخاطبا لهم: اللّهُمَّ إنّي لا أعرِفُ أهلَ بَيتٍ أبَرَّ ولا أزكى ولا أطهَرَ مِن أهلِ بَيتي، ولا أصحابا هُم خَيرٌ مِن أصحابي، وقَد نَزَلَ بي ما قَد تَرَونَ، وأنتُم في حِلٍّ مِن بَيعَتي، لَيسَت لي في أعناقِكُم بَيعَةٌ، ولا لي عَلَيكُم ذِمَّةٌ، وهذَا اللَّيلُ قَد غَشِيَكُم فَاتَّخِذوهُ جَمَلًا، وتَفَرَّقوا في سَوادِهِ؛ فَإِنَّ القَومَ إنَّما يَطلُبونَني، ولَو ظَفِروا بي لَذَهَلوا عَن

(١) المصنف، ج٦، ص١٩١، حديث ٣٠٥٩١.

طَلَبِ غَيري.

لكنّ أصحابه كانوا مقتنعين بقضيتهم، متعلقين بإمامهم، مستعدين للتضحية بأنفسهم بين يديه، وهذا ما عكسته ردودهم وأقوالهم.

قَالَ سَعِيد بن عَبْدِ اللَّهِ الحنفي: وَالله لا نخليك حَتَّى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، وَالله لو علمت أني أقتل ثُمَّ أحيا ثُمَّ أحرق حيا ثُمَّ أذر، يفعل ذَلِكَ بي سبعين مرة مَا فارقتك حَتَّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذَلِكَ! وإنما هي قتلة واحدة، ثُمَّ هي الكرامة الَّتِي لا انقضاء لها أبدًا.

وَقَالَ زهير بن القين: وَالله لوددت أني قتلت ثُمَّ نشرت ثُمَّ قتلت حَتَّى أقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بِذَلِكَ القتل عن نفسك وعن أنفس هَؤُلاءِ الفتية من أهل بيتك.

قَالَ: وتكلم جماعة أَصْحَابه بكلام يشبه بعضه بعضًا فِي وجه واحد، فَقَالُوا: وَالله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قتلنا كنا وفينا، وقضينا مَا علينا.

وحتى مع أعدائه: استمر الإمام الحسين عليه السلام في الحوار معهم إلى آخر لحظة وبيّن لهم موقفه، وأثار أفكارهم ووجدانهم ليعيدوا النظر في موقفهم العدواني منه:

فقد تَقَدَّمَ الحُسَينُ عليه السلام صباح العاشر من المحرم حَتّى وَقَفَ قُبالَةَ القَومِ، وجَعَلَ يَنظُرُ إلى صُفوفِهِم كَأَنَّهَا السَّيلُ، ونَظَرَ إلَى ابنِ سَعدٍ واقِفًا

فـي صَناديدِ الكوفَةِ، فَقالَ: الحَمدُ لله الَّذي خَلَقَ الدُّنيا فَجَعَلَها دارَ فَناءٍ وزَوالٍ، مُتَصَرِّفَةً بِأَهلِها حالًا بَعدَ حالٍ فَالمَغرورُ مَن غَرَّتهُ، وَالشَّقِيُّ مَن فَتَنَتـهُ، فَلا تَغُرَّنَّكُم هـذِهِ الدُّنيا؛ فَإِنَّها تَقطَعُ رَجاءَ مَن رَكَنَ إِلَيها، وتُخَيِّبُ طَمَعَ مَن طَمِعَ فيها، وأراكُم قَدِ اجتَمَعتُم عَلى أمرٍ قَد أسـخَطتُمُ الله فيهِ عَلَيكُـم، فَأَعـرَضَ بِوَجهِـهِ الكَريمِ عَنكُم، وأحَـلَّ بِكُم نَقِمَتَـهُ، وجَنَّبَكُم رَحمَتَـهُ؛ فَنِعمَ الـرَّبُّ رَبُّنا، وبِئسَ العَبيـدُ أنتُم، أقرَرتُـم بِالطّاعَةِ، وآمَنتُم بِالرَّسولِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ إِنَّكُم زَحَفتُم إلى ذُرِّيَّتِهِ تُريدونَ قَتلَهُم! لَقَدِ استَحوَذَ عَلَيكُمُ الشَّـيطانُ، فَأَنسـاكُم ذِكرَ اللَّهِ العَظيمِ، فَتَبّاً لَكُم ولِما تُريدونَ؛ إنّا لله وإنّا إلَيهِ راجِعونَ.

اِتَّقُـوا اللـه رَبَّكُـم ولا تَقتُلـونِ؛ فَإِنَّهُ لا يَحِـلُّ لَكُم قَتلـي ولَا انتِهاكُ حُرمَتـي، فَإِنِّـي ابنُ بِنـتِ نَبِيِّكُم، وجَدَّتي خَديجَـةُ زَوجَةُ نَبِيِّكُـم؛ ولَعَلَّهُ قَـد بَلَغَكُم قَـولُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: الحَسَـنُ وَالحُسَـينُ سَـيِّدا شَـبابِ أهلِ الجَنَّةِ، فَإن صَدَّقتُموني بِما أقولُ، وهُوَ الحَقُّ، فَوَالله مـا تَعَمَّـدتُ كَذِباً مُنذُ عَلِمـتُ أنَّ الله يَمقُتُ عَلَيهِ أهلَـهُ، وإن كَذَّبتُموني فَإِنَّ فيكُم مِنَ الصَّحابَةِ مِثلَ: جابِرِ بنِ عَبدِ اللَّهِ، وسَـهلِ بنِ سَـعدٍ، وزَيدِ بـنِ أرقَمَ، وأنَسِ بنِ مالِكٍ، فَاسـأَلوهُم عَن هـذا؛ فَإِنَّهُم يُخبِرونَكُم أنَّهُم سَـمِعوهُ مِن رَسولِ الله، فَإِن كُنتُم في شَكٍّ مِن أمري، أفَتَشُكّونَ أنِّي ابنُ بِنـتِ نَبِيِّكُم، فَوَالله، ما بَينَ المَشـرِقَينِ وَالمَغرِبَينِ ابـنُ بِنتِ نَبِيٍّ غَيري. وَيلَكُم! أتَطلُبُونّي بِدَمِ أحَدٍ مِنكُم قَتَلتُهُ، أو بِمالٍ استَملَكتُهُ، أو بِقِصاصٍ مِن جِراحاتٍ استَهلَكتُهُ؟ فَسَكَتوا عَنهُ لا يُجيبونَهُ.

وكانت بداية المعركة من قبل الجيش الأموي، «حين تقدم عمر بن سعد حتى وقف قبالة الحسين عليه السلام على فرس له، فاستخرج سهمًا، فوضعه في كبد القوس ثم قال: أيها الناس! اشهدوا لي عند الأمير عبيد الله بن زياد أني أول من رمى بسهم إلى عسكر الحسين بن علي قال: فوقع السهم بين يدي الحسين عليه السلام، فتنحى عنه راجعًا إلى ورائه وأقبلت السهام كأنها المطر.

فقال الحسين عليه السلام لأصحابه: أيها الناس! هذه رسل القوم إليكم، فقوموا إلى الموت الذي لا بُدّ منه.

قال: فوثب أصحاب الحسين عليه السلام فخرجوا من باب خندقهم، وهم يومئذ اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلًا، والقوم اثنان وعشرون ألفًا لا يزيدون ولا ينقصون، فحمل بعضهم على بعض فاقتتلوا ساعة من النهار حملة واحدة، حتى قتل من أصحاب الحسين نيف وخمسون رجلًا رحمة الله عليهم»[1].

(١) أحمد بن أعثم الكوفي. كتاب الفتوح، ج ٥، الطبعة الأولى ١٤١١هـ (بيروت: دار الأضواء)، ص ١٠٠- ١٠١.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابـن الأثيـر، المبـارك بـن محمـد الجـزري. النهاية فـي غريب الحديث والأثر، (قم: مؤسسة اسماعيليان للطباعة).

٣. ابن عسـاكر، علي بن الحسـن بن هبة الله بن عبد الله الشـافعي المعروف. تاريخ مدينة دمشق، طبعة ١٤١٥هـ.

٤. ابـن ماجـه، محمد بن يزيـد القزويني. سـنن ابن ماجـه، الطبعة الأولى١٤١٩هـ، (بيروت: دار المعرفة).

٥. ابن منظور. لسان العرب المحيط، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الجيل، دار لسان العرب).

٦. أبـو حنيفـة، القاضـي النعمـان بـن محمـد التميمـي المغربي. شـرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، (قم: مؤسسـة النشـر الإسلامي)

٧. الأردبيلي، المولى أحمد المقدس. مجمع الفائدة والبرهان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي).
٨. الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، (بيروت: المكتب الإسلامي).
٩. الأنصاري، الشيخ مرتضى. فرائد الأصول، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
١١. البروجردي، الحاج آقا حسين الطباطبائي. جامع أحاديث الشيعة، طبعة ١٤١٣هـ، (قم).
١٢. البغدادي، أحمد بن علي الخطيب. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٢١٦.
١٣. البغدادي، أحمد بن علي الخطيب. تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلمية)
١٤. البغوي، الحسين بن مسعود. تفسير البغوي، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، (الرياض: دار طيبة للنشر).
١٥. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٦. التميمي، عبد الواحد الآمدي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

١٧. الجزيني، محمد بن جمال الدين مكي العاملي. ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (قم: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث).

١٨. الجوزية، ابن قيم. زاد المعاد، الطبعة الرابعة والعشرون ١٩٩٤م، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية).

١٩. الحراني، محمد بن الحسن بن شعبة. تحف العقول فيما ورد عن آل الرسول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٢٠. الحكيم، السيد محمد تقي. الأصول العامة للفقه المقارن، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م، (بيروت: دار الأندلس).

٢١. الحلي، جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن مُطهّر، الباب الحادي عشر.

٢٢. حنبل، الإمام أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: عالم الكتب).

٢٣. الخشن، الشيخ حسين أحمد. أصول الاجتهاد الكلامي، الطبعة الأولى ٢٠١٥م (بيروت: المركز الاسلامي الثقافي).

٢٤. الخشن، الشيخ حسين أحمد. الفقه الجنائي في الاسلام الردة

نموذجًا، الطبعة الأولى٢٠١٥م، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي).

٢٥. الخشن، الشيخ حسين أحمد. هل الجنة للمسلمين وحدهم (قراءة في مفهوم الخلاص الأخروي)، الطبعة الأولى ١٤٣٢، (لبنان المركز الإسلامي الثقافي).

٢٦. الخميني، روح الله الموسوي، المكاسب المحرمة، ج١، الطبعة: الثالثة ١٤١٠هـ، (قم: مؤسسة اسماعيليان).

٢٧. الخوارزمي، الموفق بن أحمد المكي. مقتل الحسين عليه السلام، تحقيق الشيخ محمد السماوي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، (قم: دار أنوار الهدى)

٢٨. الخوئي، السيد أبو القاسم، التنقيح في شرح العروة الوثقى، الطبعة الرابعة١٤١٧هـ، (إيران: مؤسسة انصاريان للطباعة).

٢٩. الدمشقي، ابن كثير. البداية والنهاية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٣٠. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تاريخ الإسلام، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الكتاب العربي).

٣١. الرازي، محمد. تفسير الفخر الرازي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ (بيروت: دار الفكر).

٣٢. الرضي، الشريف، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الطبعة الأولى ١٩٦٧، (بيروت: دار الكتاب اللبناني).

٣٣. الروحاني، السيد محمد صادق منهاج الصالحين.

٣٤. السبحاني، الشيخ جعفر. بحوث في الملل والنحل، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، (بيروت: الدار الإسلامية).

٣٥. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. سنن أبي داوود، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجنان ـ مؤسسة الكتب الثقافية).

٣٦. السيستاني، السيد علي، مناسك الحج وملحقاتها، طبعة ١٤٣١هـ، (البحرين: دار كميل).

٣٧. شمس الدين، محمد مهدي. الاجتهاد والتقليد.. بحث فقهي استدلالي مقارن، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر).

٣٨. الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم. رسالة توضيح المسائل، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، (قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب).

٣٩. الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة البعثة).

٤٠. الصانعي، الشيخ يوسف. مصباح المقلدين، الطبعة الثانية١٤٢٥هـ، (قم: منشورات ميثم التمار).

٤١. الصدر، السيد محمد باقر. اقتصادنا، ١٩٩١م، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات).

٤٢. الصدر، السيد محمد باقر. المعالم الجديدة للأصول، الطبعة الثالثة١٤٠١هـ، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات).

٤٣. الصنعاني، عبدالرزاق بن همام بن نافع. المصنف، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٤٤. الطبرسي، الحسن بن الفضل. مكارم الأخلاق، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ، (بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٤٥. الطبرسي، الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة).

٤٦. الطبرسي، الميرزا حسين بن محمد تقي بن علي محمّد بن تقي النوري. مستدرك الوسائل، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)،.

٤٧. الطبرسي، حسين النوري، اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، (بيروت: دار البلاغة).

٤٨. الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الطبري، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٤٩. الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، (بيروت: مؤسسة الرسالة).

٥٠. الطبسي، محمد جعفر. رجال الشيعة في أسانيد السنة (دراسة تفصيلية حول رجال الشيعة في أسانيد الكتب الستة)، ١٤٢٠هـ، (قم: مؤسسة المعارف الاسلامية).

٥١. الظاهري، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي. الفصل في الملل والأهواء والنحل، (القاهرة: مكتبة الخانجي).

٥٢. العاملي، محمد بن الحسن الحر. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (قم: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث).

٥٣. العراقي، الشيخ ضياء الدين، نهاية الأفكار، تقرير الشيخ محمد تقي البروجردي النجفي (قم : انتشارات لإسلامي).

٥٤. العسقلاني، أحمد بن علي (ابن حجر). المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، الطبعة الأولى١٩٧٣م، (الكويت: وزارة الآوقاف والشؤون الإسلامية).

٥٥. العلواني، الدكتور طه جابر. لا إكراه في الدين: بحث في إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، الطبعة الثانية ٢٠٠٦، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية بالاشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ فرجينيا).

٥٦. الفاسي، أبو الحسن ابن القطان. الإقناع في مسائل الإجماع. تحقيق حسين بن فوزي الصعيدي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر).

٥٧. الفياض، الشيخ محمد إسحاق، المسائل المستحدثة، الطبعة الأولى١٤٢٦هـ، (الكويت: مؤسسة المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافية الخيرية).

٥٨. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. تفسير القرطبي، تحقيق: سالم مصطفى البدري، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٥٩. القزويني، السيد حسن. الشمس تشرق من المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، (بيروت: مؤسسة البلاغ).

٦٠. القزويني، الشيخ فضل علي (ت١٣٦٧هـ)، الإمام الحسين وأصحابه، تحقيق السيد أحمد الحسيني، قم ـ إيران، ١٤١٥هـ

٦١. القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (الرياض: دار المغني).

٦٢. القمي، الشيخ عباس. سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، الطبعة الأولى١٤١٤هـ، (قم: دار الأسوة للطباعة والنشر).

٦٣. القمي، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (الشيخ الصدوق). التوحيد، (بيروت: دار المعرفة).

٦٤. القمي، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (الشيخ الصدوق)، الأمالي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (قم: مؤسسة البعثة).

٦٥. القمي، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (الشيخ الصدوق)،

الخصال، ١٤٠٣، (قم: مركز المنشورات الإسلامية).

٦٦. القمي، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه. من لا يحضره الفقيه، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية).

٦٧. القمي، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه (الشيخ الصدوق)، كمال الدين وتمام النعمة، طبعة ١٤٠٥ هـ، (قم المشرفة : مؤسسة النشر الاسلامي).

٦٨. القمي، محمد بن علي بن بابويه. عيون أخبار الرضا، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٦٩. كامل، الدكتور عمر عبدالله. التحذير من المجازفة بالتكفير، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، (بيروت: دار بيسان للنشر).

٧٠. الكليني، محمد بن يعقوب. الكافي، طبعة ١٩٨٥م، (بيروت: دار الأضواء).

٧١. الكوفي، أحمد بن أعثم. كتاب الفتوح، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الأضواء).

٧٢. المالكي، ورّام بن أبي فراس. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، طبعه طهران سنة ١٣٠٩هـ.

٧٣. المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار. الطبعة الثالثة ١٩٨٣، (بيروت: دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي).

٧٤. محمود، عبد الحليم، التفكير الفلسفي الإسلامي، ١٩٨٢م، (بيروت: دار الكتاب اللبناني).

٧٥. المعتزلي، ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل).

٧٦. مغنية، الشيخ محمد جواد. فلسفات إسلامية، الطبعة السادسة ١٩٩٣م، (بيروت: دار الجواد).

٧٧. مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، الطبعة الأولى ١٩٦٨، (بيروت: دار العلم للملايين).

٧٨. النعمان، محمّد بن محمد بن (الشيخ المفيد). الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، (بيروت: دار المفيد).

٧٩. النعمان، محمّد بن محمد بن (الشيخ المفيد)، الأمالي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، (قم: المطبعة الإسلامية).

٨٠. النيسابوري، محمد بن عبدالله الحاكم. المستدرك على الصحيحين، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٨١. الهندي، علاء الدين علي المتقى بن حسام الدين. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الطبعةالخامسة ١٩٨٥م، (بيروت: مؤسسة الرسالة).

٨٢. الواقدي: محمد بن عمر، كتاب المغازي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٨٣. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الموسوعة الفقهية، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)

٨٤. اليزدي، السيّد محمّد كاظم الطباطبائي، العروة الوثقى، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (قم: مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني).

الصحف والمجلات:

- صحيفة الأهرام، الأربعاء ١٣ أبريل ٢٠١٦م.
- صحيفة الوطن نيوز.
- جريدة الشرق الأوسط، الاثنين ٦ رجب ١٤٣٨هـ الموافق ٠٣ أبريل ٢٠١٧ م.
- جريدة الحياة الصادرة بتاريخ الأحد، ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥م.
- صحيفة الرياض، الأحد ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٣هـ الموافق ١٢ فبراير ٢٠١٢م ـ العدد ١٥٩٣٨.
- جريدة المدينة، ملحق الرسالة، ٣٠ شوال ١٤٢٦هـ.
- جريدة الوطن السعودية، الثلاثاء ٢٦ سبتمبر ٢٠١٧م.

- جريدة عكاظ، الثلاثاء ٦ محرم ١٤٣٩هـ الموافق ٢٦ سبتمبر ٢٠١٧م.
- مجلة الفيصل، مجلة أدبية شهرية، الرياض، العددان ٤٧٧ – ٤٧٨ شوال وذو القعدة ١٤٣٧هـ.
- جريدة النهار اللبنانية.

المواقع الالكترونية

- http://www.alarabyanews.com
- http://www.alhakeem.com/ar/question (استفتاء موقع السيد محمد سعيد الحكيم)
- http://www.alanba.com.kw
- https://www.palestinapedia.net الموسوعة الفلسطينية.
- https://www.alhurra.com/a/egypt-arrest-terry-jones-american-coptic/211947.html

المحتويات

مقدمة ٧

الخطاب الديني بين المسؤولية والشعبوية ١١

تأثير الخطاب الديني في المجتمع ١٣

ضوابط المسؤولية في الخطاب ١٧

الاستجابة للميول الشعبية ٢١

ظاهرة التطرّف الديني..... ٢٩

التطرف كظاهرة اجتماعية ٣١

أعراض التطرف..... ٤١

الدوافع والأسباب ٤٥

اتجاهات التكفير في التراث الديني..... ٤٩

ماذا يعني التكفير وماذا يترتب عليه؟..... ٥١

استحقاق الهُويّة الدينية..... ٥٩

اتجاهات التكفير ٦٩
التحذير من التكفير ٨٥
احتكار الجنة ٨٩
نعم الله في الدنيا لكل البشر ٩١
وماذا عن نعيم الجنة؟ ٩٥
دعاوى احتكار الجنة ومفاعيلها ١٠٣
التواصل المذهبي وما بعد العنف الطائفي ١١٣
الزلزال الرهيب ١١٥
تطبيع العلاقة بين المرجعيات الإسلامية ١٢١
دور الممانعة والتطرف في الجانبين ١٢٩
الالتزام الديني بين المرونة والتشدد ١٣٧
واقعية التشريع الإلهي ١٣٩
ظاهرة التشدد في الدين ١٤١
مظاهر التشدد في الدين ١٤٥
البواعث والنتائج ١٥٩
مشروعية الاختلاف في الرأي ١٦٧
التفكير ينتج اختلافًا ١٦٩
احتمالات الخطأ والصواب ١٧٥
إدارة الاختلاف ١٧٩

تهميش العقل في الحالة الدينية ١٨٧
التلازم بين الدين والعقل ١٨٩
التحذير من تهميش العقل ١٩٥
استغلال المشاعر الدينية ١٩٩
الجمود واتّباع الأسلاف ٢٠٥
الحسين عليه السلام ثورة إنسانية قيمية ٢٠٩
الحسين مشروع أمة ٢١١
العنف ليس خيارًا ٢٢١
الالتزام القيمي ٢٢٥
المصادر والمراجع ٢٣١
المحتويات ٢٤٣